

روايات مصرية للجيب
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020
35
أسطورة
دماء دراكيولا
ما وراء الطبيعة



TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل).. أستاذ أمراض الدم سابقًا بكلية طب (.....) و.....

ولكن.. يبدو أنني سأضيع وقتكم بلا داع في تقديم نفسي.. إن هذه القصة ذات جزأين.. ويبدو لي أن الأرجح الاكتفاء بمقدمة واحدة للقصة كلها..

كذلك ـ على سبيل التجديد ـ لن أقدم الصفحتين المملتين اللتين تلخصان ما ورد بالجزء الأول..

إن أحداثًا كثيرة تنتظرنا اليوم، وعلينا ألا نضيع الوقت والصفحات في استرجاع

الماضي.. فلنقلب الصفحة ونبدأ دون إبطاء..

تعالوا نفتح الباب في نهاية الردهة.. ولكن حاذروا من أن تتلوث أقدامكم بدماء (دراكيولا).....

❋ ❋ ❋

حكاية الشاحب الثالث

يحكيها هو بنفسه

قال (كوثار):
ـ أنا من ضم (بيلاسكو) مدرس القرية.. وأبي إلى إخوة الدم..

* * *

لا بد أن من قرءوا مذكرات أبي قد عرفوا كيف كان الأمر.. لقد جاء إلى غرفتي المظلمة ليلًا يبغي أن يعرف مشاكلي، وسر ميلي إلى الوحدة وقلة نظافتي..
لكنّ نداء (هو) كان أقوى مني، ونجحت في جعل (بيلاسكو) يشرب جرعات عدة ٍ

من الإكسير.. وكانت ملاحظته قوية حقًّا، جديرة بمدرس علوم عتيد.. إنّه سائل عطر الرائحة، له مذاق (الزنجبيل) لو خُلط بشيء من النعناع..

وسرعان ما تم الأمر.. لقد جعله الإكسير قادرًا على تحمل امتصاص دمه.. وأفرغت ما بعروقه، ثم قلت له العبارة العتيدة:

- «أنت لن تموت... ستعيش لتكون من إخوة الدم، وعندها تلفظ كل خطايا الماضي..»

* * *

أمّا من ضمني أنا فـ (فيروزة) الحسناء..

(فيروزة بالكوفسكو).. اسم عربي جميل، ربما يرجع إلى عهد الأتراك في (رومانيا).. فلقد ترك لنا الأتراك أثرًا لا يمحى ها هنا..

كانت (فيروزة) فيروزة حقيقيّة تمشي على قدمين.. ذلك الجمال الصارخ الذي يُشعر الرجال بالهم والأسى.. ذلك الحسن الذي كفت النساء منذ دهر عن حسده، وصرن يعتبرنه حقيقة لا مفر منها كالشمس...

(فيروزة) ابنة (أندريا بالكوفسكو) العجوز الفظ.. الفلاح الخشن، الذي يؤمن بأن المرأة يجب أن تُضرب على الدوام، فإن لم تفعل ما تستحق عليه الضرب فهي ـ حتمًا ـ فاعلته..

لهذا كان يوسع نساء الدار ضربًا.. امرأته وابنتيه.. يحدث بهن كدمات لا بأس بها حول العيون وفي الشفاه، ثم كان يهدأ فيبدأ الحديث عن الشيوعيين الذين جعلوا الحياة لا تطاق...

- «يقولون إن الأمور تزدهر.. بحق السماء أنا أعرف شيئًا واحدًا.. لقد صار الرزق أضيق، وغدت الحياة أعسر.. مع فارق واحد، هو أن المرء لا يحق له أن يعلن ذلك..»

وتعود له الثورة، فينهض ليوسع المرأة البائسة زوجته ضربًا.. ويعتصر ذراع (فيروزة) بين إبهامه وسبابته قائلًا:

- «أنت ستكونين امرأة حسناء.. والمرأة الحسناء لا تجلب سوى المصائب لأهلها

ولنفسها.. كيف لي أن أطمئن لحظة لخروجك إلى الغابة لجمع التوت؟ أو لعودتك إلى الدار في ساعة متأخرة؟»

ويضربها بعنف وهو يكاد يجن غيظًا:

- «حتى لو لم تكوني شيطانة... فهناك من الشياطين عدد كاف دائمًا..»

وتصرخ الفتاة وتولول، وتهرع جريًا من الدار..

يقول له الجيران أن يترفق..

فيقول لهم في فظاظة: إن هذا ليس من شأنهم.. فلينعموا برزقهم الوافر، ويطمئنوا على نسائهم وبناتهم القبيحات.. أمّا هو فلن ينام أو يهدأ حتى تصيبه أزمة قلبيّة، ويموت والزبد على شفتيه ككلب عقور...

* * *

كانت (فيروزة) هي فتاتي..
وكان جميع شباب القرية يعرف هذا.. وبرغم ضآلة بنيتي فإنني كنت قادرًا على جندلة من يتهكم أو يتخرص أو يلمز فيما يتعلق بها.. وكنت أثب إلى صدره قبل أن يفهم ما يحدث، لأمرغه في الغبار وأشبعه ركلًا وعضًا ولكمًا..
وبعد هذا كنت ألقاها عند الخميلة، لتمسح بيدها الباردة الرقيقة على كدماتي وتقول:
- «رباه! قد آذوك حقًّا يا صغيري المسكين..»
- «لكني أذيتهم أكثر..»

وكانت لقاءاتنا سرية يشوبها توتر شديد.. فلو رآنا أحد الحاقدين لجرى وأخبر أباها.. عندها لن يتردد (بالكوفسكو) العجوز في أن يجلب بندقيته (القرابينة) من الجرن ليفرغها في رأسي ورأس ابنته.

لم يحدث بيننا ما يشين أو ما أخجل من ذكره.. لكن أباها ما كان لينتظر حتى أقسم.. وأنا لا ألومه كثيرًا على كل حال..

كان حبنا خطرًا داهمًا.. وكانت الأيام ضدنا لأنني - حتمًا - لا أستطيع أن أتزوجها في سن مبكرة كهذه.. وما كان القس ليسمح لي بأن أخذها معي إلى كنيسته لنتزوج سرًا، كما فعل (روميو) و(جولييت) تلك الرواية التي في مكتبة أبي..

في الآونة الأخيرة تم تعد (فيروزة) تأتي للقائي في الخميلة..

وأدركت أن حصار أبيها عليها يضيق.. ورحت أفكر في كيفيّة لقائها.. لكني لم أبلغ بعد بشجاعتي درجة أن أتسلل إلى دارها.. فالخطر حقيقي لا شك فيه، وليس به شيء من الرومانسية.

إن ما حدث لـ (روميو) و(جولييت) رومانسيٍ.. لكن لمن يقرأ قصتهما في فراشه ليلاً، وليس بالنسبة لهما بالتأكيد..

ترى كيف أنقذك وأنقذ نفسي يا (فيروزة)؟

* * *

وكان الجواب دانيًا جدًّا...
في ذلك المساء كنت عائدًا إلى داري مطرق الرأس مهمومًا، حين رأيت شبح فتاة يدنو مني...
دنت فتعرفتها.. إنها (ياسمينة) أخت (فيروزة) والتي تصغرها بأعوام أربعة.. كانت ممتقعة.. حتى في الظلام استطعت أن أرى ذلك..
طفلة مذعورة تتسلل تحت جناح الليل لتقول لي:
- «(فيروزة) ليست على ما يرام..»
- «أحقًّا؟ لماذا لا أجد في نفسي دهشة؟»
اتسعت عيناها الزرقاوان أكثر.. وهمست:

- «الأمر ليس كما تظن.. لا علاقة لهذا بأبي.. إنها منزوية في حجرتها، وحيدة لا تكلّم أحدًا، ولا تترك أحدًا يكلمها.. تعاف الطعام، وتوشك أن تتحول إلى شبح..»

وارتجف صوتها وهي تقول:

- «إن أمي مذعورة..»

كدت أذوب قلقًا.. لكني كنت قادرًا على بعض التفكير السديد.. ماهو دوري أنا في كل هذا وما ذنبي؟

قالت وقد رأت السؤال في عيني:

- «تقول أمي إنّه الحب.. إن حبها لك سيقتلها قتلًا.. أمي تعرف هذه الأشياء.. وتقول: ربما لو رأتك (فيروزة) لحظة.. فلربما.....»

هذه هي الكارثة.. لو رفضت لكنت نذلًا.. ولو قبلت لكنت مجنونًا..

إن العجوز (بالكوفسكو) لن يعطيني ترف الموت بالرصاص هذه المرّة.. سوف يعطيني درسًا عمليًا في كيفيّة سلخ الخراف..

لكني شاب.. والشاب لا يملك خيارين لأمور كهذه..

- «إنني أقبل.. ولكن المكان؟»

- «ستلقاك (فيروزة) عند الطاحونة القديمة.. سنعرف كيف نقنعها بهذا.. وعليك أن تكذب عليها.. قل لها إنك تحبها..»

- «وهل يكذب المرء في شيء كهذا؟»

- «.. وقل لها إنكما ستتزوجان يومًا ما..»
- «أمّا هذا فكذب صريح.. لكني سأفعله..»

تلفتت حولها في رعب.. ثم قالت وهي تذوب في الظلام:

- «شكرًا يا (كوثار).. الطاحونة القديمة غدًا بعد الغروب.. وداعًا!»

* * *

لهذا يا رفاق ترونني واقفًا في الظلام، أصغي لصوت حشرات الليل المنتظم، وأرتجف.. أرتجف انفعالًا وأرتجف بردًا..

يا لحرارة دماء الشباب! يا لاندفاعهم! قل للواحد منهم إن حبيبته تحتاج إلى التهام عينيه كي تعيش.. عندها يخرج لك عينيه دون تفكير، وفي أريحية يعتبرها الكبار حماقة، ويعتبرها الشاب فروسية..

لماذا أتحدث عن الشباب كأني لست منهم؟

الإجابة بسيطة: لأنني لم أعد منهم..

ولكن.. هي ذي (فيروزة) قادمة في الظلام تجر ساقًا وراء ساق، محنية القامة مترنحة، لكنّها هي..

دنوت منها فاتحًا ذراعي؛ لكنّها ظلت متصلبة متخشبة، لم تبد أدنى حرارة كالتي أظهرتها أنا.. تراجعت للوراء وتأملتها..

الحق أنني لم أر شحوبًا كهذا إلا في أوراق الشجر الذابلة.. واقشعر جلدي لمرآها.. لم يكن الأمر متعلقًا بلوعة الهوى إذن.. الفتاة مريضة.. مريضة للغاية..

- «(فيروزة)! حبيبتي! يجب أن يراك العجوز (ميخائيل).. لربما..»

فتحت شفتيها المتشققتين.. وهمست:

- «لم يعد بوسعه أن يفعل الكثير.. أنت وحدك تستطيع..»

- «سأفعل حتمًا.. لكنّ أفعل ماذا؟»

- «سأموت خلال أيام ما لم.. ما لم.....»

وارتجفت ودمعت عيناها..

هنا جن جنوني.. وأقسمت: لو أنها سألتني أن أسافر إلى (تمبكتو) الآن.. أو أذهب

حافي القدمين إلى القطب الشمالي.. أو أصطاد لها (كنجارو) حالًا، فلسوف أفعل..
قالت وهي تخرج قنينة من جيبها:
- «هذه القنينة.. إنها من تركيب الصيدلي.. هل.. هل تذكر (روميو) و(جولييت)؟ لقد كنت أقرأ المسرحية أمس..»
- «هذا هو ما كنت أفعله بالذات.. هل تعنين الانتحار؟»
- «بل النوم الذي يبدو كالانتحار.. ثم نصحو منه في الكنيسة في أثناء القداس، لنطلب أن يزوجونا وإلا متنا بحق»
بدت لي الفكرة لا بأس بها.. بعد ما يولول آباؤنا وبعد ما يلوم أبوها نفسه ألف مرة، نصحو من سباتنا ونطلب.. نطلب عندما

يغدو الجميع على استعداد للتنفيذ.. نطلب الزواج طبعًا..

- «هل هو دواء منوم؟»

- «يقول الصيدلي إن مفعوله مضمون تمامًا.. ويكفي للنوم يومًا كاملًا..»

- «وشربت منه؟»

- «بعدك يا (كوثار).. بعدك.....»

تناولت القنينة.. ورفعتها إلى فمي..

يبدو الأمر مرعبًا.. ماذا لو كان هناك خطأ ما؟ ماذا لو كان الدواء لا يجعلنا (نبدو) موتى.. بل هو (يجعلنا) موتى؟

سيان عندي.. فعينا (فيروزة) الصافيتان المناشدتان تقولان لي ألا مجال للرفض واختلاق الأعذار...

وجرعت جرعة طويلة حاولت ألا أتذوقها لكني فشلت..
زنجبيل مخلوط بالنعناع! عبقري حقًّا يا أبي.. وصفت بدقة المذاق الذي أجهدت ذهني باحثًا عن طريقة لوصفه..
- «كيف مذاقه؟»
- «لا بأس.. عطري نوعًا.. والآن دور.....»
هنا كانت (فيروزة) قد أنشبت أسنانها في ذراعي!
ولم أقاوم كثيرًا لأن الخدر كان يسري في دمي.. بل إن الأمر لم يكن سيئًا إلى الحد الذي يبدو به...

❋ ❋ ❋

هو - الذي يمشي في الظلال - يريدك.....

❋ ❋ ❋

ومن يومها صار اسمي الجديد هو.. الكابوس...

❋ ❋ ❋

حكاية الشاحبة الثانية

تحكيها هي نفسها

قالت (فيروزة):
- يقولون إن اسمي جميل.. يقولون إن وجهي أجمل..
يقولون إن حياتي سيئة.. يقولون إن مصيري أسوأ..

* * *

(فيروزة) و(ياسمينة) البنتان الجميلتان لـ (بالكوفسكو).. أكثر فلاحي القرية فظاظة وخشونة..
إن (بالكوفسكو) يعيش الحياة كأنها حرب مرهقة يجب التوتر والصراخ فيها لمن

يريد أن يرى يومًا جديدًا.. ضغطه مرتفع... توشك عيناه على الانفجار بالدم.. يوشك وريدا عنقه على النزف..
لقد أقسم على أن يجعل كل ثانية من حياته معنا جحيمًا.. لا بد من الصراخ ولا بد من الركلات واللكمات.. يضرب زوجته لأسباب غريبة حقًّا: لأن الشيوعيين أفسدوا الأمور في (رومانيا).. ولا تسأله عن ذنب المرأة المسكينة، فهو يرى لها ذنبًا عظيمًا في كل شيء..
ويرى الشباب يرمقونني بإعجاب، فكان يُطلق السباب، ثم يقتادني من شعري إلى الدار، وينهال على ضربًا بحذائه الثقيل..
- «تبًا لك! لو ترك لي الأمر لحبستك في برميل طيلة حياتك أو دفنتك في

المستنقع..»
ويجيء القس ليزور دارنا حاملًا مبخرته، فيقول له في رصانة:
- «لا تقس على نسائك يا (بالكوفسكو).. إن (فيروزة) حسناء لكنّها على خلق قويم.. ولا ذنب لها في جمالها..»
فيقول وهو يحاول أن يبدو مهذبًا أمام القس:
- «لهذا أحاول أن أشوهه بالمزيد من اللكمات! إن وجهًا متورمًا هو وجه أقل جذبًا للذباب..»
فيرمقه القس مذهولًا باحثًا عن كلمات يقولها.. ثم يدعو له بالرشاد ويتركه..
الحق أنني تعلّمت منذ الطفولة أن أكره جمالي، وأعتبره لعنة تلاحقني.. فأنا أظفر

بكل عيوبه دون مزاياه..
ولا بد أنني كنت في أمس الحاجة إلى الحب حين عرفت (كوثار)..

* * *

دعنا لا نخلط الأمور ببعضها..
فأنا جميلة حقًّا، ويمكنني أن أروق لأي شاب في قريتنا.. لكنه لن يحبني ولن يتحمل تبعات هذا الحب وتضحياته..
أما (كوثار) فكان يحبني حقًّا.. يحنو عليّ حقًّا..
لكنني كنت أخشى عليه نتائج علاقة شائكة كهذه، مع مخلوقة أبعد ما تكون عن الاستقرار النفسي والعقلي.. مثلي..

قال لي ذات مرة:

- «ثمّة جريمة في العالم المتقدم اسمها جريمة (إيذاء الأطفال) أو (Child abuse)، وبموجبها يمكن للدولة أن تنتزع طفلًا من أبويه اللذين يضربانه كثيرًا، لتقوم بتربيته بشكل صحيح..»

تنهدت في حسرة وأنا أتحسس الكدمة على ركبتي، وقلت:

- «.. لكنّ هذا ـ لو حدث في العالم كله ـ لن يحدث في (رومانيا) أبدًا..»

وتعلمت الكثير من (كوثار)..

كم من كتب جلبها لي من مكتبة أبيه ـ مدرس القرية ـ كي أغوص فيها، وأسافر إلى عوالم نائية.. إلى (الأهرام) التي تلتمع في ضوء الشمس على حين تغفو التماسيح

في النيل.. إلى شمس منتصف الليل.. إلى قطعان الجاموس البري التي يطاردها الهنود الحمر في وديان (كاليفورنيا)..

إلى عوالم لا يركل فيها الناس بعضهم البعض بلا سبب..

❋ ❋ ❋

كانت (ناديا) صديقتي مريضة..

تقول أمها إن ابنتها لم تعد راغبة في مفارقة غرفتها، ولم تعد تكلّم أحدًا، وكفت عن الاستحمام حتى غدت للغرفة رائحة القبور.

قالت لي أمها وهي تكاد تجن قلقًا:

- «(فيروزة) هلا فعلت شيئًا؟ إنها تحبك بشكل خاص...»
لم أجد ما أقول أو أفعل سوى أن أطلب منها تدخلني إلى غرفتها.. ومن اللحظة الأولى شممت الرائحة التي ستغدو جزءًا من حياتنا منذ ذلك التاريخ..
صاحت (ناديا) وهي متكومة في الفراش:
- «أوصدى الباب يا حمقاء! أوصدى الباب!»
نهضت للباب، وابتسمت للأم معتذرة ثم أوصدت الباب بالمزلاج لأجلس وحدي في الضوء الخافت قرب (ناديا)...
برغم الظلام شبه الدامس، كان بوسعي أن أرى شحوبها الشديد.. شحوب هذه

الورقة لا أقل.. وكان رأسها مضمدًا كأنما هو مجروح..

وارتجف قلبي لأنني شعرت بأن الفتاة تموت.. بالتأكيد تموت.. ثمّة أشياء تدعى (سرطان الدم) و(النزف الداخلي) و... و... وكلها تجعل المرء شاحبًا كهذه الورقة.. لكنّ من المستحيل أن يكون مرضها نفسيًا..

قالت (ناديا) بعد ما تبسطت قليلًا:

- «إنني لم أعد أطيق الناس ولا النور..»

- «هذا لأنك مريضة يا (ناديا).. إن د. (ميخائيل) سوف...»

- «لم يفعل شيئًا! لقد كان هنا منذ يومين وكتب الى هذا الدواء.. لكني لا أطيق رائحته..»

ولوحت بقارورة صغيرة أمام عيني.. وتقلص فمها اشمئزازًا..
قلت لها بحنان أم تفهم الأطفال جيدًا:
- «كل الأدوية الناجحة كريهة المذاق يا فتاة..»
قالت في عصبية وهي تناولني القارورة:
- «جربي رشفة واحدة، ولسوف أشيد لك تمثالًا!»
كان على أن أتشجع.. قربت القارورة من فمي وفتحتها.. كانت لها رائحة عطرية جعلت رأسي يدور، لكني تمالكت أعصابي ورشفت رشفة ثم رشفتين.. حقًّا ليس كريهًا أبدًا..
بعد هذا عرفت أنني في الفراش، وأن (ناديا) تنشب أسنانها في ساقي تفعل شيئًا

ما.. وسمعتها تلهث قائلة:

- «أنت لن تموتي.. ستعيشين لتكوني من إخوة الدم.. وعندها تلفظين كل خطايا الماضي!»

* * *

بعد ساعة غادرت الغرفة مبلبلة الأفكار..

كنت أعرف يقينًا أن (هو) - الذي يمشي في الظلال - يريدني.. لكنّ من (هو)؟

وسألتني الأم عن سر شحوبي، وعن عرجي البسيط.. فقلت:

- «لا شيء يا سيدتي.. إن (ناديا) نائمة الآن لكنّها بخير..»

وحين خرجت إلى النور الساطع خارج الدار، شعرت كأنني عارية وأن الشيء الوحيد الذي يجب أن أفعله هو أن أجد مكانًا رطيبًا مظلمًا أتوارى فيه.. الشمس**!** كيف يحبون هذا اللهب الحارق المسلط على الأرض؟ كيف يتحملونها؟

❋ ❋ ❋

كان على أن أصنع آخرين..

وفكرت في (بالكوفسكو).. ثم رأيت أنه لا يستحق أن يغدو منا..

لهذا كان (كوثار) هو أول من فكرت فيه..

ناديت (ياسمينة) وأبلغتها رسالتي..

والآن هأنذا أتحرك في الظلام قاصدة الطاحونة القديمة..

❋ ❋ ❋

حكاية الشاحبة الأولى
أو
كيف بدأ الوباء؟

تحكيها هي نفسها

قالت (ناديا):
كنت أول من جلب (هو) إلى (هالماجيو).. وإنني لفخور بذلك...

* * *

منذ صباي كنت أهوى غرائب الأشياء، وكان الكهف هناك دومًا ليذكرني بأن في قريتنا أشياء غامضة لم تتضح بعد.. في قريتنا لم تعد هناك أسرار.. كل قلوب الشباب واضحة كالشمس.. كل أفكار الشيوخ جلية كالماء النقي.. أعرف ما يدور برأس القس ورأس البقال ورأس الشرطي

الوحيد.. أعرف ما سيحدث بعد عام وبعد عامين على وجه التقريب.. الخلاصة أن شيئًا غامضًا واحدًا لم يبق في قريتنا..
لكن الكهف......!

* * *

وأغرب ما في هذا الكهف أنه ـ على عكس الكهوف كلها - غير مغلف بالأسرار.. إنّه البساطة ذاتها.. لم يختف أحد بداخله، ولم يمت أحد على بابه، ولم نسمع منه صراخًا رهيبًا في الأمسيات المقمرة...
وهذا في حد ذاته يجعله فريدًا من نوعه.. الكهف الوحيد غير الغامض في هذه

الأرض!

لم يكن أحدنا يحبه، ولم يكن الشباب يقصدونه، لأن رائحته الكريهة كانت تجعل الشباب يفرون منه.. أحيانًا كان العشاق يدنون منه ليخطوا بالطبشور الحروف الأولى من أسمائهم (الحروف الأولى التي لا تسمح باستنتاج أسمائهم الكاملة)، ويرسموا قلوبًا.. لكنّ هذا هو كل شيء، لأن الرائحة الشيطانية لم تكن تسمح بما هو أكثر..

وجاء اليوم الذي بلغت فية السادسة عشرة من عمري، وأدركت أن الوقت قد حان كي أحتفل احتفالًا خاصًا فريدًا: لِمَ لا أدخل الكهف وحدي؟

الشيء الذي لم يقم به شاب واحد من شباب القرية، ولم يخطر لرجل واحدها هنا.. أقوم به أنا الفتاة الواهنة الضامرة (ناديا هالماسكيا).. أليس هذا عيد ميلاد من نوع فريد؟

* * *

لن أنسى هذا اليوم ما حييت..

كنت عائدة من المدرسة والوقت عصرًا، والحر قد جعل دروب القرية كلها خاوية تنبعث منها رائحة القيظ، ورائحة أوراق الشجر الجافة التي أوشكت على الاحتراق..

كنت أركب دراجتي، لذا قررت أن أدور دورة أطول من المعتاد قرب الكهف في النصف الشمالي من القرية.. ولم يكن هناك أحد..

وقفت أرمق الكهف بعض الوقت.. كان الإغراء شديدًا..

لست أدري ما إذا كان محض خيال، لكني شعرت بالكهف العجوز يناديني قائلًا: الآن أو لا للأبد..

هبطت مترجلة وأرحت الدراجة على الأرض، ثم دنوت - كذبابة تدنو من بيت العنكبوت - وأنا أفكر: هل من الحماقة أن......؟

ثم كيف أدخل الكهف دون حبال ولا كشافات؟ كلهم يفعلون هذا في الروايات..

لكنّ من قال إنني سأتوغل؟ فقط سأدخل إلى مسافة لم يدخلها أحد قبلي قط..

كانت أول خطوة هي الأكثر عسرًا.. الخطوة التي جعلتني أنحني وأمر تحت الحبل.. الحاجز الساذج الذي وضعوه على سبيل الواجب..

بعد هذا كانت أربع أو خمس خطوات كفيلة بأن تجعلني في الداخل.. ولم يكن ملكوت الظلام قد ساد بعد، لكنّ ملكوت الرائحة كان قد أعلن مجده! وسمعت حفيف أجنحة..

إنها تلك الكائنات المقيتة: الوطاويط.. لكنّها ستفر حتمًا.. فلم يصطدم أحدها بي ما لم يكن أصم..

واصلت المشي بقدمين ثابتتين نوعًا فوق الثرى المبتل.. لا بد أنني مشيت في الغبشة دقيقة لا أكثر.. لكني كنت أشعر بأنني مشيت دهرًا، وراح ذلك الجزء الجبان من عقلي يقول لي:

- «هلمي يا فتاة.. عودي! لقد توغلت بما يكفي وبرهنت على شجاعتك.. والآن حان وقت التراجع.. حان وقت الفرار!»

لكني كنت آمره بالصمت..

فيعود ليقول بعد ثوان بنفس الإلحاح:

- «أمّا زلت مصرة؟ أي نوع من الحمقى أنت؟»

فيقول له الجزء الشجاع من عقلي:

- «هلا خرست قليلًا؟ إنني لم أو شيئًا بعد.. ثم إن التراجع سيجعلني أشعر

بالذعر.. سأشعر كأن هولًا يطاردني..»
كنت أدرك هذا الشعور تمامًا.. ما دمت أتقدم بجسارة سيظل الخوف نائيًا عني.. الخطر كل الخطر هو لحظة التراجع..

إنني أعرف ذلك المشهد الخالد في أفلام الرسوم المتحركة، التي تعرضها سينما القرية مساء الأحد: القط يخطو فوق الهاوية دون أن يلاحظ ذلك.. يمشي في الهواء بضع خطوات، ثم يتنبه إلى أن الأرض ليست تحت قدميه.. عندها فقط يسقط!

هكذا الأمر دائمًا.. الخطر لا يؤذينا إلا حين نعرف أنه خطر..

❋ ❋ ❋

(هو) - الذي يمشي في الظلال - يصغي لأنفاسك الآن..

* * *

من قال هذا؟

توقفت وقد تصلب الشعر في مؤخرة عنقى.. الحق أن ما سمعته لم يكن صوتًا بل كان فكرة.. فكرة أجنبيّة عنى لكنّها وجدت مكانها في ذهني.. إن هذا غريب حقًّا..

في هذه اللحظة لم أكن أرى شيئًا على الإطلاق.. لقد صار الظلام مطلقًا.. لهذا بحثت عن عود ثقاب في جيبي.. أنا أحمل

دائمًا مشط ثقاب ولا أدري سبب هذه العادة..

اشتعل عود الثقاب محدثًا الوهج الأولى الساطع.. ثم الضوء الخافت المتراقص المميز.. وعلى ضوئه أدركت أن الممر مسدود..

❋ ❋ ❋

(هو) - الذي يمشي في الظلال - ينتظرك في شغف منذ قرون..

❋ ❋ ❋

إنه الصوت مرّة أخرى..

لكن ما رأيته جعلني أكثر اهتمامًا من كل ما أسمعه في ذهني..

إن هذا المكان مقبرة!

لم تكن كأية مقبرة رأيتها، أو تلك التي في كنيسة القرية.. بل هي أقرب إلى جدران صخرية، والجدران قد دفنت فيها هياكل عظمية كاملة.. لكنّ...

لقد انطفأ العود بعد ما أحرق أناملي..

* * *

عود ثقاب آخر.. من جديد أرى ما يدور حولي..

وفي هذه المرّة بدأ الهلع يشل أفكاري..

إن هذه الأجساد قد دفنت في الجدران دفنًا.. ومن الأيدي العظمية الممدودة خارج الجدار يمكنني أن أقسم إن بعضهم قد دفن ها هنا حيًّا في أثناء البناء! وكان هذا كافيًا كي يقهر أية شجاعة لي..

هذا المكان دنس.. مكان يحمل علامة (خريولسن) نفسه.. إنّه........

لقد انطفأ العود الثاني..

* * *



بل هى أقرب إلى جدران صخرية ، والجدران قد
دفنت فيها هياكل عظمية كاملة ..

الهلع!

نظر القط إلى قدميه وأدرك أنه لا يمشي على أرض ثابتة.. لذا جن جنونه.. حرّك قدميه في محاولة هستيرية للمشي.. ثم هوى!

أركض في اتجاه المخرج عاجزة عن ترتيب أفكاري..

يدي تحاول في جنون إشعال عود ثقاب ثالث.. لكن هذه الأشياء لا تتم إلا في تؤدة وبيد ثابتة..

و.. أي! لقد ارتطم رأسي بواحد من تلك الأشياء المدببة التي تحب التدلي من سقوف الكهوف..

يبدو أنهم يسمونها (الهوابط).. لكنّ (الجيولوجيا) هي آخر ما يمكنني تذكره

الآن..

إنني.. أي! ضربة أخرى..

شعور البلل الساخن على جانب وجهي لا يعني سوى شيء واحد..

المذاق المالح في الفم.. المذاق الصدئ قليلًا.. و.....

❋ ❋ ❋

ظلام!

❋ ❋ ❋

كنت على منضدة خشبية قاسية أرمق السقف غير فاهمة لشيءٍ.. ورأيتهم - بين

اليقظة والمنام - يحيطون بي.. عددهم حوالي الخمسة يرتدون ما يشبه مسوح الرهبان السوداء، لكنهم يغطون بها وجوههم تمامًا فلا تستطيع تبين ملامحها..

وأدركت أنني موجودة فيما يشبه بهو قصر قديم.. قصر أو قلعة.. أذكر البرد الشديد الذي كان يسري في عروقي، والشعور اليقيني بأن هذا كله حلم من أحلام سقطتي..

كانوا يتحدثون بلغة رومانية قديمة من التي نطالعها في كتب المدرسة.. وثمّة عدد من المشاعل تلقي ظلالها على المكان ممزوجة برقصة الضوء.. لكني لم أكن خائفة..

قال واحد منهم بصوت متحشرج قليلًا:

ـ «هأنتذى يا فتاة بيننا.. لقد اجتزت الثغرة إلى (جانب النجوم)..»
وقال آخر بصوت مبحوح:
ـ «إن سنك مناسبة حقًّا.. فنحن نفضل من هي على أعتاب الشباب.. إنهن أكثر اتصالًا بالأثير وأكثر انفصالًا عن المادة..»
وقال ثالث بصوت مخنوق:
- «أنت المختارة إذن.. التي جاءت بمحض إرادتها الحرة لتنزف دمها الشاب في المحراب..»
ثم بصوت آمر:
- «هات الإكسير أيها الأخ (سانجينوس)[1]..»

وشعرت بالقارورة تدنو من شفتي.. ولم يقل أحدهم لي أن أشرب.. لكني فعلت مدفوعة بظمأ حارق.. كان الشراب عطريًا قليلًا له مذاق حريف.. فما إن فرغت من احتسائه حتى سمعت تنهدات الراحة..

بعد هذا لا أذكر ما حدث بالضبط..

فقط كنت غير واعية، لكني أسمع صوت أحدهم يقول:

- «أنت لن تموتي.. ستعيشين لتكوني من إخوة الدم.. وعندها تلفظين كل خطايا الماضي..»

وأسمع آخر يقول:

- «(هو) - الذي يمشي في الظلال - يريد منك أن تجلبي له آخرين..»

وأسمع ثالثًا يقول:

- «فلتعودي من (جانب النجوم) يا فتاة..»
- «ولتتأهبي لقدوم (هو).. (هو) الذي يمشي في الظلال..».
- «(هو) - الذي يمشي.....»
ثم لا شيء.....

* * *

وكنت خارج الكهف من جديد.. ممزقة الأوصال مزعزعة الكيان، لكني تحاملت لأقف على قدمي..
كانت الشمس قد غابت لكنّ الأفق لم يعد مظلمًا بعد..

وتحسست جيبي.. كانت هناك قارورة صغيرة، وعرفت دون سؤال أو حاجة لأن أفتحها، أنها تحوي الإكسير.. أو المادة الخام له..

هي ذي دراجتي.. حيث تركتها بالضبط منذ ساعات ثلاث..

ركبتها وانطلقت نحو داري..

كنت أعرف أن عليّ أن أجد شخصًا آخر لنغدو اثنين..

لقد اختارني (هو) - الذي يمشي في الظلال - عالمًا أنني لن أخذله..

وكان على أن أبدأ بـ (فيروزة)..

من سواها؟

* * *

حكاية الصحفي البدين

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال (جوستاف):

ـ لم نكن نعرف شيئًا عن كل هذا، حين راح أولئك المسوخ يدفعوننا دفعًا إلى الكهف وهم يتصايحون..

وانحنينا كي نمر تحت الحبل الذي وضعوه على المدخل.. ثم وجدنا أننا نقف أمام المدخل عطن الرائحة نتبادل النظرات..

سألت (رفعت) وأنا أرمق الوجوه في ضوء النيران:

- «هل تريد رأيي يا (رفعت)؟ واضح أنهم لن يدخلوا معنا..»

قال لاهثًا وهو يستجمع وعيه المبعثر:
- «لا بأس.. هذا يبدو أفضل..»
وأردف وهو ينظر للمدخل المظلم:
- «نحن نعرف ما ينتظرنا مع هؤلاء القوم.. وهو أسود من الليل وألعن من الشياطين.. لكننا لا نعرف ما ينتظرنا بالداخل.. أفضل أن نجرب هذا الاحتمال...»!
ابتلعت ريقي ودسست يدي في معطفي، وقلت:
- «حسن.. ابدأ أنت بالدخول إذن!»

* * *

رحنا نخطو في الظلام إلى أن مددت يدي في جيب المعطف، وأخرجت الكشاف.. وعلى ضوئه تحسن الأمر قليلًا..

وقفت و(رفعت) بضع دقائق نرمق المكان الذي نقف فيه، والذي كان كهفًا عاديًا جدًّا.. ولم تكن هناك وطاويط لحسن الحظ.. يبدو أنها خرجت باحثة عن رزق ليلتها..

سألني (رفعت) وهو يتحسس الجدران المغطاة بالكلس:

- «هل سيتركوننا نخرج؟ أعني هل سنظل هنا للأبد بانتظار الموت أم أن التجربة انتهت عند هذا الحد؟»

مططت شفتي السفلى بمعنى أنني لا أعرف...

ثم أشرت له كي نتوغل أكثر فأكثر..

لم تكن هناك فرصة كي نضل طريقنا لأن الكهف عبارة عن ممر واحد ليست له ممرات فرعية.. ليس أمامك سوى التقدم أو التراجع..

كان الثرى مبتلًا فثمّة قطرات مائية تتساقط من السقف..

وعلى ضوء الكشاف رأينا عشرات من العيون الحمراء البراقة، ترمقنا في ذعر حقيقي، جوار الجدران..

فئران.. وأنا أمقتها.. لكنّها مذعورة مثلنا أو أكثر..

أخيرًا - بعد عشر دقائق من المشي - وجدنا شيئًا ما..

وسمعت (رفعت) يقول وهو يثبت عويناته على قصبة أنفه ليرى أفضل:

- «مقبرة! أو - بمعنى أدق - جثث تم دفنها في الجدار!»

*   *   *

رحنا نتأمل المشهد على ضوء الكشاف.. كانت هناك نحو العشرين جثة، وقد تم دفنها واقفة في الجدار، وإن ظل جزء منها خارجه.. ومن الأيدي العظمية الخارجة من الجدار، والتي بدا كأنها تحاول اقتناصنا أو إمساك أي شيء من ثيابنا؛ عرفنا الحقيقة المفزعة: لقد دفن هؤلاء أحياء، ولم يعبأ أحد بتوسلاتهم، بينما مادة البناء تجف ببطء!

سألني (رفعت) وهو يخرج من جيبه العلبة إياها، ليدس قرصًا تحت لسانه، محاولًا منع قلبه من التوقف:

- «هل تعرف موضوعًا كهذا في تاريخكم؟»



رحنا نخطو فى الظلام إلى أن مددت يدى فى جيب المعطف ،
وأخرجت الكشاف . . وعلى ضوئه تحسن الأمر قليلاً

- «بالطبع لا.. هل تحسبنا ووحوشًا؟»
- «لا سمح الله.. لكنّ تاريخكم حافل بقطع الرقاب والخوازيق وخلافه.. ولربما كان موضوع الدفن في الجدران معروفًا عندكم.. لقد اعتمد (نبوخذ نصر) على أجساد الأسرى في أثناء بناء سور (بابل) العظيم.. أي أنها طريقة قديمة قدم البناء ذاته...»
- «لا أحد يدفن البشر في جدار ما لم يكن مخبولًا..»
دنا (رفعت) من أحد الهياكل العظمية، وتأمله في اهتمام.. كان يمثل النصف الأيسر لرجل كامل على حين اختفى النصف الأيمن داخل الجدار، وكان الكلس

وعوامل القدم قد جعلاه يبدو أقرب إلى نحت متقن منه إلى إنسان..

رأيته يعالج الصخر المحيط بالشيء باظفاره، وهو جهد بلا جدوى طبعًا، لذا مددت يدي في جيبي لأناوله مطواتي الفاخرة:

- «جرب استعمال هذه..»

تأمل المطواة، وفتحها.. ثم نظر لي.. وقال دون أن يضحك:

- «هل أنت واثق من أنك لا تحمل دبابة في جيب هذا المعطف؟ لو كنت تحمل فراشًا للنوم أرجو أن تخبرني.. لأن.....»

وهنا كان نصل المطواة قد غاص في الحجر المتأكل.. وراح يحاول أن يخلخله ليرفع جزءًا منه.. أخيرًا بعد جهد حذر

سقطت بضعة أحجار على الأرض، وعاد هو يواصل ما بدأه على ضوء الكشاف..

- «احترس يا (رفعت).. لو انكسر نصل المطواة لـ.....»

مزيد من الحجارة يسقط.. أخيرًا تحرر ثلثا الجسد عند الصدر.. واستطعت أن أرى خرق القماش البالية.. ثياب هذا الشيء التي كان يرتديها منذ يعلم الله وحده متى..

- «(رفعت)! هل ستخرجه بالكامل؟»

كانت مهمّة قذرة.. لكنّ العظام أقل رهبة من الجثث الكاملة على كل حال.. خاصة العظام التي نظفتها القرون..

لكن (رفعت) لم ينتو إخراج الهيكل بكامله..

رأيته يشير إلى شيء معلق حول عنق الميت.. قربت ضوء الكشاف وتأملته.. إنّه صليب أثري عتيق.. ولكن ماذا في ذلك؟

رأيت (رفعت) يخرج شيئًا آخر.. شيئًا يشبه الوتد الغليظ قد انغرس وسط الضلوع فهشم أكثرها، وانتزعة بصعوبة بالغة..

وقف يتأمل الوتد البالي في ضوء الكشاف.. ثم قال بصوت هادئ:

- «الأمر واضح.. هذه جثث مصاصي دماء!»

* * *

- «عم تتحدّث يا (رفعت)؟ هل ستردد بدورك هذا الهراء؟»

قال وهو يقذف الوتد إلى الأرض:
- «أردده لكني لا أصدقه بالضرورة.. الأمر واضح.. هذه الجثث دفنت في الجدار بعد غرس الأوتاد في قلوبها وتعليق الصلبان حول أعناقها.. وبرغم هذا لم يمت الجميع..
إنها الطريقة التي لجئوا إليها في القرون الوسطى، للتخلص من مصاصي الدماء ها هنا.. والأسطورة تقول إن مصاص الدماء يظل ميتًا حتى ينزع أحد الحمقى الوتد من قلبه.. ومن الواضح أن فكرة الدفن في الجدار مثالية لمنع انتزاعه..»
- «وأنت نزعت هذا الوتد!»
قال في ازدراء:

- «الموتى لا يعودون للحياة قبل قيام الساعة.. هذا هو الشيء الوحيد الذي أثق به هنا..»

ثم نظر إلى ساعته، وسألني وهو يجفف عرقه:

- «كم لبثنا ها هنا؟»

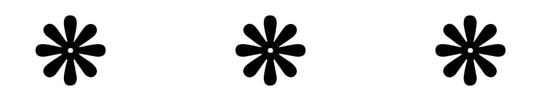
- «ما يقرب من ساعة..»

- «وهل هذا الكشاف قادر على تحمل فترة أطول؟!»

نظرت إلى الكشاف في قلق.. لقد نسيت هذه العادة السيئة لدى الكشافات..

قلت وأنا أركل الوتد على الأرض:

- «اطمئن.. إن ضوء هذا الكشاف لا ينتهي إلا عندما ينتهي!»



- ٢ -

وعلى ضوء الكشاف الذي ما زال قويًا لحسن الحظ، واصل (رفعت) الحفر بالمطواة في جزء آخر من الجدار.. الجزء المواجه لنا.. وكان هشًا جدًا..

قلت له في سأم:

- «ماذا تحاول عمله؟ لن تثقب الكهف بالمطواة أبدًا..»

قال والعرق يغمر صلعته، وقد بدأ في اللهاث كالمذعوبين:

- «هه.. هه! أحاول التأكد من أن.. هه.. هذا الجدار لا يفصلنا عن بقية.. كوح كح! الكهف ف..»

- «لكنك ستقضى نحبك قبل التأكد من شيء..»

- «إنني بكامل لياقتي.. ومازال.. هه! قرص (النترات) تحت لساني..»

وهنا صمتُّ..

لقد رأينا وراء الصخور التي تفتتت بما فيها.. المعالم الخارجية المتسخة لباب خشبي عملاق.. باب عليه صليب هائل الحجم، وقد ازدان - الباب - بنقوش معقدة جدًا..

نظر لي (رفعت) نظرة من نوع (هل - رأيت - كم - أنا - ذكي - يا أحمق؟).. ثم تناول الكشاف مني وراح يتفحّص الباب العملاق، ودون كلمة أخرى واصل انتزاع الحجارة بيده الحرة..

أخيرًا ـ بعد عشر دقائق - صار الباب جليًا لعيوننا.. وزال لدي كل شك في أنني أحلم.. هذا الشيء موجود حقًّا..

- «رباه! يبدو لي كباب الجحيم!»

قال (رفعت) وهو يجلس على الأرض يلتقط أنفاسه:

- «لن يدهشني هذا.. فقد أغلق أحدهم هذا الباب يومًا، ثم بنى وراءه جدارًا قواه بجثث مصاصي الدماء.. فماذا يمكن أن يكون وراءه؟ ليس (بابا نويل) بالتأكيد..»

وطوح لي المطواة:

ـ «مطواتك!»

أمّا أنا فراحت عيناي تفتشان في الخشب العملاق المتأكل.. خشب عاش قرونًا.. وأخيرًا وقعت عيناي على وثيقة من جلد

الحيوانات المدبوغ، مغبرة جدًا، قام أحدهم بتثبيتها على الخشب..
وكانت مكتوبة بحروف سلافية عتيقة بولغ في زخرفتها.. لكنّها مفهومة مقروءة.. قلت لـ (رفعت) وأنا أقرب الكشاف من الوثيقة:
- «إنها تنصحنا بعدم فتح الباب..»
أراح رأسه للوراء ونزع عويناته.. وتنهد:
- «ما كنت لأحتاج إلى وثيقة أثرية تخبرني بهذا..»
أردفت وأنا أبعد عيني عن الورقة، وأنزع عويناتي بدوري لأرى أفضل:
- «إليك المكتوب.. إنها لغة رومانية قديمة جدًا لكنّها مفهومة لمن كان مثقفًا

مثلي:

«فلينتصر من على حق..»

«أنا الكونت (ستيفانو) هراوة الرب، ومنفذ كلمته في هذه الربوع، أكتب للأجيال القادمة كي أحذر أبناءها من فتح هذا الباب..

«إن شرًا مستطيرًا قد حل بقرية (هالماجيو) من أعمال (بوكوفينا)، واستغاث بنا القرويون أنا الكونت (ستيفانو) حامل راية الأسد المجنح وحامي حمى الكنيسة، لذا جئنا ها هنا واستطعنا بفضل العلي القدير أن نستأصل شأفة الموتى الأحياء والـ (فامفيري) من البلاد..»

سألني (رفعت) عند هذا الجزء:
- «ما الـ (فامفيري)؟»
- «مصاصو الدماء.. لاحظ تشابه الكلمة مع لفظة (فامباير) (Vampire) الإنجليزية التي تعنى الشيء ذاته..»
ثم واصلت القراءة:

«واستطعنا - بعون العلي القدير - أن نجد بوابة الجحيم التي يأتي منها الـ (فامفيري) إلى عالمنا مما يسمّونه (جانب النجوم)، ولقد أغلقناها بإحكام ورش الآباء عليها الماء المقدس وصلوا كثيرًا، كما قمنا أنا الكونت (ستيفانو) سليل العظماء بدفن كل الـ (فامفيري) في الجدار الذي أحكمنا به غلق الباب..

«لكنّ الباب قد ينفتح لو تلوث هذا الكهف بدم عذراء شابة، عندها يعم الهول وتغزو الأبالسة الأرض لتملأها جورًا..

«أقول للأجيال القادمة التي قد تجد هذا الباب: إياكم وفتحه.. هذا الباب هو مدخل الشياطين إلى عالمنا، وهو واحد من سبعة مداخل في (رومانيا)، لكنه أكثرها هولًا وخطرًا..»

- «انتهت رسالة الكونت يا (رفعت).. ما رأيك؟»

قال وهو ما زال جالسًا على الأرض يتأمل عويناته في يده:

- «رأيي أنّ هذا الكونت لا يكف عن امتداح نفسه.. لم أر أحدًا يلقب نفسه بكل هذه الألقاب في عشرين سطرًا..»
- «أنا لا أملك مزاجًا لسماع دعاباتك السخيفة.. كن جادًا!».
قال لي (رفعت) وهو يرتدي عويناته، وينهض:
- «حسن.. سأسمع رأيك أولًا ثم أقول لك كم أنت غافل...»
أطفأت الكشاف لأدخره قليلًا، ثم قلت في الظلام الدامس:
- «أنت تعرف موضوع الفتحات التي تصل ما بين عالمنا و(جانب النجوم).. من الواضح أن إحدى هذه الفتحات موجودة في هذا الكهف، وهو ما عرفه الناس منذ زمن،

وحاولوا غلقها بهذا الباب وبجثث مصاصي الدماء.. ويبدو أن الفتحة ظلت مغلقة قرونًا..

الآن يمكن القول إن إحدى مراهقات القرية دخلت ها هنا.. وجرحت نفسها.. بلل دمها ـ دم العذراء - الأرض.. وهكذا بدأ الكابوس وتسرب مصاصو الدماء إلى هذه القرية البائسة ليحيلوا حياتها جحيمًا..

ما أريد قوله هو أنّ هذا الباب غير موصد..»

- «فلنتأكد...»

ونهضت لأعيد إضاءة الكشاف وأسلطه على الباب.. كل شيء يبدو على ما يرام.. لكنّ.. هاهو ذا مزلاج منزلق عن موضعه.. مزلاج عملاق يصلح لغلق بوغاز.. لكنه ليس مغلقًا..



قال وهو ما زال جالسًا على الأرض يتأمل عويناته فى يده :
ـ «رأيى أن هذا الكونت لا يكف عن امتداح نفسه» . .

هو ذا مزلاج آخر مفتوح.. بالواقع إن الباب موارب، لكنه ليس موصدًا على الإطلاق..

نظرت لـ (رفعت)، ونظر (رفعت) لي..

- «ما رأيك؟»

- «أنت محق.. ومن هذا الباب سيأتي الكابوس..»

- «أي كابوس؟»

- «الشيء الذي أرغمونا على دخول الكهف من أجله.. فهم بالتأكيد لم يدخلونا هنا كي نثرثر في الظلام..»

ارتجفت للفكرة، وعاودت تأمل الباب الموارب.. هل نرجع؟ سيفتك بنا هؤلاء الممسوخون بالخارج.. هل ننتظر هنا؟

سينفتح الباب ويخرج منه ما لا أطيق رؤيته حتمًا..

وهنا جاءتني الفكرة الوحيدة التي بدت معقولة:

- «(رفعت).. قد يكون هذا الباب وهمًا.. لم لا نفتحه ونرى ما وراءه؟»

- «هل جننت؟»

- «بالعكس.. إنها الطريقة الوحيدة لفهم ما يحدث وربما النجاة.. من أدرانا أنّ هذا الباب لا يقود إلى خارج الكهف وربما خارج القرية؟!»

❋ ❋ ❋

حكاية الطبيب النحيل

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال د. (رفعت):

- «الرعب خلف باب مغلق..

لن تكف هذه التيمة عن إثارة ذعرنا حتى تقوم الساعة أو يستبدلوا بالأبواب اختراعًا آخر..»

❋ ❋ ❋

في تؤدة ربط (جوستاف) الحبل حول خصره، وكنت أحمل هذا الحبل في جيب معطفي.. طوله خمسة أمتار لكنه جيد متين.. أمسكت بالطرف الآخر وربطته

حول معصمي.. بهذا الحبل لن نضل طريقنا أو يتعثر أحدنا في حفرة ما..
أخذ شهيقًا عميقًا ودنا من فتحة الباب، ونظر لي.. ثم غمغم:
- «كن حذرًا.. انتظر حتى يصير الحبل مشدودًا ثم اتبعني.. يجب أن يكون أحدنا في أمان لينقذ الآخر لو حدث شيء..»
- «حافظ على الكشاف.. فإن لقيت حتفك لا تنس أن تعيده إلى..»:
وارب الباب في حرص بضع سنتيمترات.. لم يحدث شيء.. رفع الكشاف قليلًا ليتفقد ما وراء الفتحة ثم هزّ رأسه.. لم أفهم معنى هذه الهزة.. يمكن أن يكون معناها (لا شيء) أو يكون (يا للهول!)..

المهم أنه اجتاز الباب وعبر إلى جانبه الآخر، ومعه عبر الضوء.. وكذا وجدت نفسي في ظلام دامس كظلام الرحم.. أو كظلام القبر...

وحبست أنفاسي وأصغيت في اهتمام لما يحدث بالجانب الآخر..

هنا لم يعد الإصغاء ذا أهمّيّة ما..

❋ ❋ ❋

سمعت الصراخ الشنيع والزئير.. وسمعت صوت الرياح.. وراح الباب يترجرج كأنما يوشك أن يخرج من حلقه..

ومن الفتحة المواربة تسرب شعاع أحمر مريع، وتسرب دخان لا أدري هل هو

أحمر أم هو يعكس لون الشعاع..

- «(جوستاااااااف)!»

صرخت حتى خرج لساني من أصوله.. صرخت حتى وثبت عيناي من محجريهما؛ فالذعر الذي غمرني كان أعمق من أي تعقل..

- «(جوستاااااااف)!»

ألصقت ظهري بالباب جاهدًا كي لا تجذبني قوي الهلاك إلى الداخل، أو تخرج لي حيث أنا..

صوت الصراخ والعواء والأنين والخوار والغطيط والنواح والعويل والبكاء والثبور.. كل هذا يمزق طبلتي أذني..

وشممت الرائحة الشهيرة: رائحة الكبريت.. رائحة مصاصي الدماء..

- «(جوستاااف)!»

وتحرك الباب بقوّة، فرماني إلى الوراء مترين، وتوتر الحبل..

❋ ❋ ❋

هنا انفتح الباب قليلًا، وطار الكشاف إلى الداخل ليسقط فوقي.. ثم رأيت النصف العلوي لـ (جوستاف) يبرز من فرجة الباب.. يتشبث به في قوة، وعلى وجهه علامات ذعر حيواني لم أرها قط..

- «(رفعاات)! إنهم يجذبونني!»

هرعت إلى الباب واعتصرت كم معطفه، وتراجعت للوراء.. كانت قوى الجذب غير عادية.. لقد تذكرت هذه اللحظة كثيرًا فيما

بعد حين رأيت سمكة القرش العملاقة تجذب الصياد إلى الأعماق في فيلم (الفك المفترس)..

لكني كنت أملك الحبل.. وسرعان ما قمت بلفه حول صخرة كبيرة بارزة من الأرض.. بهذا ضمنت ألا يضيع الرجل لو تخاذلت أنا.. ثم رحت أجذبه بكل قواي وأنا أردد آية الكرسي والمعوذتين وكل ما في قلبي من أدعية..

أخيرا بدأنا نكسب المعركة.. بدأ يلين.. وسرعان ما لحق بي إلى الداخل.. وأغلقت الباب وراءه..

ولدقائق رقدنا نلهث وظهرنا للباب، شاعرين بضربات هائلة من الجانب الآخر.. قلت لـ (جوستاف) مطمئنًا:

- «لا تخش شيئًا.. إنهم يحاولون إرعابنا.. يستطيعون الدخول في أية لحظة لو أرادوا.. هم فقط غير راغبين!»

لم يرد.. كان منهما في صلاة طويلة باللغة الرومانية.. وشفتاه ترتجفان.. لقد تهشمت عويناته وتبعثر شعر رأسه الواهن.. أنامله تهتز كذيل حية الجرس.. ماذا رآه بالضبط؟

أخيرا هدأت الطرقات وأمكنني أن أسترخي قليلًا..

نظرت لمزلاجي الباب المفتوحين الصدئين، وأدركت أنه من المستحيل أن أغلقهما.. الباب كله لا يمكن غلقه..

فلآمل أن الكائنات على الجانب الآخر لا ترغب في الخروج الآن.. ربما هي - فقط

- ثارت وماجت لأن (جوستاف) دخل لها.. سألته في هدوء وبصوت يحاول ألا يفزعه:

- «(جوستاف).. ماذا رأيت هناك؟»

لم يرد.. فعاودت السؤال:

- «(جوستاف).. ما الموجود هناك؟»

ظل صامتًا فنظرت له متوقّعًا أن يكون قد مات.. كلهم يفعل ذلك في السينما، لكنه كان حيًّا.. فقط كان متسع العينين يرمق الباب في بلاهة، وانفتح فمه فسال اللعاب منه، لكنه لم يبال به...

حقا إنني في مأزق.. سجين هذا الكهف الذي ينتظر مصاصو الدماء الشاحبون خارجه، وينتظر (جانب النجوم) بداخله،

وعلى أن أواجه هذا مع رفيق فقد عقله نهائيًا!

* * *

- ٢ -

رائحة الكبريت هذه!

* * *

عليّ أن أجد حلًا سريعًا..
لقد بدأ ضوء الكشاف يخبو.. عرفت هذا لأنني كنت منذ دقائق أجلس في هذا المكان وأرى تفاصيل الباب، أمّا الآن فقد صار الباب مبهمًا غارقًا في الظلال.. و...

* * *

(هو) - الذي يمشي في الظلال - ينتظرك..

* * *

ولكن ما الذي رآه (جوستاف)؟ ما الذي يراه المرء ويجعله يجن ويفقد النطق؟ الحق أنني لا أريد أن أعرف.. (في قصة قادمة سأحكى للقارئ رحلتي إلى جانب النجوم وما رأيت فيه، لكنّ دعني أعترف أنني لم أزر جانب النجوم في المغامرة التي بين يديك الآن)..

الكشاف يضعف أكثر..

لا سبيل إلى مغادرة الكهف عن طريق الباب.. لا سبيل إلى مغادرته عن طريق

الفتحة التي يحيط بها الشاحبون..
هل أنتظر للصباح عندما يغادر هؤلاء مكانهم؟ نظرت لساعتي فوجدت أنها الواحدة بعد منتصف الليل.. أنا لا أضمن نتائج بقائي ها هنا ست ساعات كاملة حتى تملأ الشمس السماء.. ربما كان كهف المفاجآت هذا يحوي المزيد من الأسرار الشائقة لنا..
هل تحرك هذا الهيكل؟ لا.. لا أظن.. إنها لعبة الظلال إياها...

* * *

(هو) - الذي يمشي في الظلال - يعرف كيف يثير هلعك..

* * *

هنا قر رأيي على فكرة خطرة..
خطرة لكنّها مغرية..
الشاحبون ينتظرون خارج الكهف.. ينتظرون ماذا؟ ينتظرون هلاكنا أو تحولنا إلى شاحبين مثلهم... لقد قالوا إن علينا أن نغدو منهم.. فماذا لو حدث هذا؟
إنها لعبة خطرة.. خاصة وقد أصيب مترجمي الوحيد المختص بالترجمة (الرومانية / الإنجليزية) بالخبال.. ولن أعرف أبدًا ما سيقول هؤلاء القوم..
لكني لن أتردد أكثر.. سأحاول أن أؤدي دوري جيدًا..

* * *

كان هناك الكثير من الحجر الجيري على الجدران، فرحت أفركه بيدي ثم مسحت كفي على وجه (جوستاف) المكتنز.. لم يبد أنه لاحظ شيئًا.. رأيت اللون الأبيض يغمر البشرة فرحت بكفي أحاول جعله أكثر تجانسًا.. وأخيرًا بدا لي (جوستاف) كعفريت أبيض البشرة.. لكنّ...

(فلنأمل ألا يعرق.. إن العرق يفسد كل شيء)

حاجباه اكتسبا اللون الأبيض بدورهما، فرحت أنظفهما بلعابي.. لا بأس لن يضايقه هذا..

قمت بنفس العمل النفسي وأحكمت مسح صلعتي.. ونظفت حاجبي وشاربي جيدًا..

ثم مددت يدي إلى جيب (جوستاف) وأخذت المطواة..
آي! كادت ساقي تقتلني ألمًا حين أدميتها بالنصل.. لكن لا حيلة لي في هذا.. لا بد من بعض الدماء على الشفتين لتعطي تأثيرًا دراميًا قويًا.. وهكذا لطخت شفتي (جوستاف) وشفتي و...

(لا بد أنّ هناك ثغرات كثيرة في هذا التنكر)

بعثرت بعض قطرات الدم على باقة قميصه وفراء (الاستراخان) إياه..
وكان آخر شيء فعلته هو أن مسحت يديه حتى المعصمين بالجير، وفعلت الشيء ذاته مع يدي..
إن الجير يحرق.. وقد شعرت بجلدي يئن شاكيًا.. لو خرجنا حيين من هذا الموقف

لعولجنا من (الإكزيما) لمدة عامين..
والآن - وقد تم إخراجٍ المشهد ـ علينا أن نغادر هذا الكهف حالاً.. وقبل أن يلفظ الكشاف آخر أنفاسه..

* * *

رائحة الهواء النقي تبعد عنا رائحة الكبريت..
(جوستاف) يمشي ورائي وأنا أجره من يده، كأنما هو إنسان آلي.. فما إن رأيت مدخل الكهف، وأشباح الواقفين خلفه، وضوء النيران التي أشعلوها؛ حتى أدركت أن خطتي فاشلة..

من قال إنني أستطيع خداع هؤلاء بتنكر ساذج، قمت بعمله في ضوء كشاف يحتضر؟ ألن يتحسس أحدهم بشرتي؟ ألن يبلل العرق جبيني ليفسد كل شيء؟

لقد كنت - للمرة البليون - ساذجًا.. ساذجًا..

لكني قررت الاستمرار في حماقتي.. يقولون للمبتدئ في القيادة: إذا أخطأت فلا تتردد.. واصل حماقتك لأن التردد قد يحدث كارثة..

إذن فلأواصل حماقتي.. ولآمل أن يكونوا أحمق مني..

* * *

جميعًا كانوا هناك.. (شيطان الظلام).. (نهر النار).. (الروح الكبرى) وآخرون... بوجوههم المسخية المتأكلة يرمقوننا في فضول..
شخصت ببصري إلى السماء مقلدًا (صالح سليم) في (الشموع السوداء)، أو كأنني (أحمد مرعي) في فيلم (المومياء).. فقد كان يكفيني أن تلتقي عيناي بعيني أحدهم ليفتضح كل شيء، ومشيت بينهم متصلب الخطى، متقمصًا دور من رأى تجربة مروعة.. سمعتهم يتهامسون.. والأخت الكبرى تتكلم بالرومانية، وتشير بكفها ذي الإصبعين المفرودتين.. ماذا تقول يا ترى؟ تشك بالتأكيد...

سمعتهم يوجهون الكلام لـ (جوستاف) لكنه - دون تمثيل - كان في أسوأ حالة ممكنة.. وكان هو ورقتي الرابحة الوحيدة..

رحت أردد كالمجذوبين الكلمة الرومانية الوحيدة التي أعرفها الآن:

- «فامفيري! فامفيري!»

فشهق بعضهم، وتبادلوا النظرات من جديد..

وسمعت اللفظة تتردد بين صفوفهم:

- «فامفيري! فامفيري!»

يفسحون لنا الطريق.. لكني لا أجرؤ على النظر الوجوههم كي أرى ما إذا كانوا يشكون أو يتساءلون..

هل التمثيل مقنع إلى هذا الحد؟

الحق أنني. في هذه اللحظة. كنت ألعب دورى بعبقرية (لورانس أوليفييه) و(سارة برنار) و(جورج أبيض) و(يوسف وهبي)، لو أنهم اجتمعوا في شخص واحد.. وصرت أتنفس كالـ (فامفيري)، وأفكّر كمصاصي الدماء، وأمشي كالشاحبين..

كانوا يفسحون لنا الطريق..

وراح أمل وحشي يتلاعب في صدري.. لكني لم أجرؤ على الاعتراف به...

أتراهم يتركوننا نغادر المكان؟

أتراهم يهابون اعتراض طريقنا باعتبارنا صرنا صاحبي مكانة عظمى؟

أتراهم؟

❋ ❋ ❋

هنا سمعت صوتًا أسود قاتما كئيبًا له نبرات الببر، يقول بانجليزية لها طابع (أوروبا) الشرقية:

- «عرض جيد يا د. (رفعت).. لكنه لم يخدع أحدًا!»

واستدرت مبهوتًا..

لقد عرفت الصوت.. لكني أردت أن أتأكد من الوجه..

كان هذا هو د. (لوسيفر)[2]!

* * *

- ٣ -

أردف قائلًا:

- «إنهم لم يصدقوك لحظة يا د. (رفعت) خاصة مع هذا التنكر السقيم.. لكنهم ظنوك جننت.. لهذا يراقبون ما ستنتهي إليه هذه المهزلة!»

❋ ❋ ❋

كان (هو)..

بشحمه ولحمه.. ثيابه السوداء القاتمة والقرط في أذنه، والخواتم الماسية العديدة في أصابعه، والقلادة الذهبية على صدره،

والنظرة الخاوية التي لا تدلّ على شيء على الإطلاق..

- «مدهوش أنت للقاء من لا ترتقب لقاءه!»

وابتسم ابتسامته الواثقة الكريهة، ومد يده يبغي مصافحتي، لكني لم أفعل، ورحت أرمق الوجوه الشائهة التي عادت تحتشد حولنا..

قال بصوته الذي يجعلك تتمنى سماع أكثر:

- «إنني هنا لأنني مدعو.. (هو) - الذي يمشي في الظلال - دعاني كي أشهد (أرماجيدون) الجديدة!»

قلت بصوت مبحوح:

ً

- «حقًّا.. يجب أن يكون مثلك موجودًا في مكان كهذا.. إن (خريولسن) يعتبر هذه القرية مدينة ملاهٍ يتنزه فيها..»

ابتسم.. وقال وعيناه ثابتتان على وجهي:

- «إنني أنتمي إلى هنا أصلًا.. (بوكوفينا) هي بلد يتأرجح بين (المجر) و(رومانيا).. لكني أعتبر نفسي مواطنًا مجريًا..»

ثم تأمل وجهي، ومد يده الباردة ليمسح الحجر الأبيض عن بشرتي، وقال:

- «سخيف جدًا! تبدو كالأطفال حين كانوا يدهنون وجوههم بالدقيق ليفزعوا الفتيات!»

ثم نظر إلى القوم، وقال بضع كلمات بلهجة آمرة.. ولدهشتي رأيته يتأبط ذراعي كأنما هو صديق قديم لي، ويقتادني إلى أحد المنازل المحيطة بالساحة..

نظرت للوراء لأجد (جوستاف) ما زال واقفًا حيث هو، وقد عاد فمه مفتوحًا كالبلهاء.. ومن الواضح أنه سيظل للأبد في هذا الموضع.



كان (هو) . . بشحمه ولحمه . . ثيابه السوداء القاتمة والقرط فى أذنه ،
والخواتم الماسية العديدة فى أصابعه ، والقلادة الذهبية على صدره . .

ـ «لا تخش شيئًا.. إنّه قوى كأسد.. إن هي إلا صدمة عاطفيّة أورثتها إياه الأهوال التي رآها في جانب النجوم..»

قالها كأنما سمع أفكاري، وخمن ما خطر لي..

وأمام باب البيت الذي قصدناه وقفنا.. أخرج مفتاحًا من جيبه وفتح القفل ثم وارب الباب ودعاني للدخول..

ودخلت.. فلم يكن أمامي شيء آخر أفعله.. إننا تحت رحمتهم على كل حال، ويمكنهم تمزيقنا متى أرادوا..

* * *

كان البيت مظلمًا عفنًا كعادة بيوت هذا الجزء من (هالماجيو).. لكنه لم يحاول إضاءة أي أنوار كهربية..

تناول شمعة حمراء كبيرة وضعها على المنضدة، ومد يده لي مفرودة الكف في رسالة فهمتها على الفور.. أشعلت قداحتي ولامست بلهبها الفتيل فانبعث النور الخافت الخجول في المكان..

وقف يرمقني بنظراته الثابتة المزعجة، بينما جلست أنا منتظرًا خطوته التالية.. قال وهو يخطو بتؤدة نحوي:

- «الحق أنني لم أتوقع أن أجدك ها هنا.. لكني أذكرك تمامًا.. قليل هم من يرون الشمس فينكرون..»

قلت وقد فقدت شغفي بالمقاومة:

- «إن أشياء شيطانية تدور ها هنا.. الكل يعرف هذا.. لكني ـ أصارحك - لم أتوقع أنك وراء كل هذا..»

هزّ يديه بحركة براءة تمثيلية، وقال بصوته الببري الرنان:

ـ «لست وراء كل هذا.. ظننت أنني أوضحت لك أنني مدعو.. أنا مثلك تمامًا مع فارق واحد هو أنك وصاحبك غير مدعوين.. ولكن عليك أن تشكر ربك على وجودي ها هنا في هذه اللحظة.. وإلا لمزقكما الشاحبون إربًا.. هذه هي فائدة المعارف والصلات!»

على الرغم منى ابتسمت.. وسألته قلقًا:

- «ولماذا تبقي علينا؟ ظننت أهدافك وهؤلاء المخابيل واحدة..»

- «هذا صحيح.. لكني سأبقي عليكما لتكونا شاهدين على قدوم (هو)..
بعد هذا سيقرر هو ما يجب عمله بشانكما.. يجب التصرف بحكمة؛ لأن اختفاء صحفي مهم من (بوخارست) وأستاذ جامعة مصري لن يمرّ دون ضوضاء.. وعلى هؤلاء القوم أن يدركوا هذا.. حتى ولو كانت أزاهير الغرور وحمية الحمق قد ملأت أرواحهم..
نعم هم أقوياء.. لكنّ كالنبت الذي نما وترعرع.. لكنّ انتزاعه أو حرقه ما زال ممكنًا.. القوة الحقّة هي يوم يغدو هذا البيت دغلًا هائلًا متشابكًا..»
ابتسمت من جديد..

ما زال الرجل يملك قاموسًا هائلًا من التعبيرات الشعرية.. وما زال حريصًا على الكلام بلغة المسرح لا لغة الواقع..

سألته وأنا أتأمل لهب الشمعة:

- «من هو (هو) هذا؟»

- «إنّه (فلاد الوالاشي) طبعًا!»

❋ ❋ ❋

واتسعت عيناي دهشة، وللحظة أفلت قلبي ضربة.. صحيح أننا في (رومانيا) بلد (فلاد) لكنني ظننته بعيدًا جدًا في الزمن والمكان..

- «هل تعني الكونت؟»

- «حتمًا!»

ـ «الكونت (دراكيولا)؟»
ـ «سمه كما تشاء.. (دراكيولا).. (فلاد).. (نوسفيراتو).. كلها تدلّ على ذات الشخص، أو لنقل ذات الشيء..»
أخرجت منديلًا ورحت أنظف به المسحوق الأبيض على بشرتي، وعدت أسأل مرشدي الرهيب:
- «أنا لا أفهم.. لقد قُتل مصاص الدماء منذ قرون.. ولقد حضرت تجربة لمحاولة إحيائه لكنّها ـ لأسباب يطول شرحها - لم تتم.. وكانت مومياؤه موجودة.. كان ميتًا كما يكون الموت.. وأنا لا أظن أنك ستزعم قدرتك - لا سمح الله - على إحياء الموتى..»
- «أنت لا تفهم..»

قالها وهو يداعب لهب الشمعة بكفه كما يفعل رجال (المافيا) عند إعلان ولائهم.. وقال:

- «كعادتك تثب إلى الاستنتاجات التي تبرهن على أنك لا تعرف شيئًا على الإطلاق.. (فلاد) لم يمت قط ولم يعش قط.. هل سمعت يا دكتور عن (جانب النجوم)؟»

- «بل فتحت بابه منذ نصف ساعة أو أكثر.. وهو سبب ما أصاب صديقي..»

قال وعيناه مثبتتان على وجهي (إن عينيه لم تطرفا لحظة منذ لقائنا وأقسم على هذا)..

- «إن (جانب النجوم) هو العالم الموازي الذي يعيش فيه مصاصو الدماء،

والمذءوبون، والشياطين والعفاريت.. إنّه الجحيم بعينه، ومن العسير على بشري أن يراه دون أن يجن..
«توجد عدة فتحات في (جانب النجوم) تصل ما بينه وبين عالمنا.. (رومانيا) وحدها تملك سبع فتحات منها، أخطرها جميعًا فتحة كهف (هالماجيو) الذي تشرفتما بزيارته، والتي أغلقها الكونت (ستيفانو) في القرون الوسطى..
«ومنذ قرون يحاول سكان (جانب النجوم) المرور إلى عالمنا، مجتازين الحواجز الطبيعية التي تحمي هذه الأرض، وكان بعضهم ينجح من آن لآخر، عندها يظهر مذءوب أو مصاص دماء هنا أو هناك..

«إن (جانب النجوم) يزخر بمصاصي الدماء المفزعين.. وأخص منهم بالذكر (سيجفريد الأميدي) و(يوليان المغتصب).. الحق أقول لك إن (فلاد الوالاشي) هو أكثرهم وداعة ورقة.. لكنه يملك قدرة غير عادية على اختراق الفتحة المذكورة، لذا صار هو أدنى مصاصي الدماء إلى عالمنا..

«وفي تاريخ (رومانيا) كانت هناك فترات عدة استطاع فيها (فلاد) أن يعبر الثغرة، ليعيش في البلاد يعيث فسادًا متخذًا شكلًا أقرب إلى الآدميين، ولهذا فإن من يعرفه العالم باسم الكونت (دراكيولا) ليس سوى (فلاد) متنكرًا في صورة آدمية.. صحيح إنّه يمصّ الدماء، ويفعل أكثر ما

يفعله الـ (فامفيري)، إلا أنّ هذا ليس سوى عشر قدرته على الشر..

«وفي النهاية كان الحمقى يقتلونه بوتد خشبي - إلى آخر هذا الهراء - حاسبين أنهم تخلصوا منه.. في الواقع كانوا يقتلون الهيكل الآدمى الذي اختاره لنفسه، من ثم يتركه ويعود إلى (جانب النجوم) ليعد لهجوم آخر بعد أجيال..»

قلت أنا في سخرية:

ـ «معمرون حقًّا أولئك (الفامفيري)..»

أجاب (لوسيفر) دون أي فهم لدعابتي:

ـ «صحيح.. إن متوسط عمر (الفامفيري) الحق ثمانمائة عام..»

- «لنفرض جدلًا أن ذلك الأخ ـ ماذا كان اسمه؟ - (سجريد)..»

- «(سيجفريد الأميدي)[3]..»

- «لنفترض أنه استطاع عبور الفتحة، فماذا يحدث؟»

ابتسم كاشفًا عن أسنانه البيضاء إلى حد مريب، وغمغم:

- «إنها نهاية هذه الأرض إذن.. إن شره يفوق (فلاد) مائة مرة، وقوته تفوق (فلاد) ألف مرة.. لكن هذا لن يحدث في الوقت الحالي على الأقل..»

ثم أردف وهو يتأمل لهب الشمعة المتراقص:

- «في (جانب النجوم) يعيش (فلاد الوالاشي) في إقطاعية كبيرة، ويسمونه هناك باسم (هو الذي يعيش في الظلال)،

وهي تسمية تناسبه حقًّا إذا ما أردت رأيي..

«ولكن (فلاد) كالسوائل.. والسوائل تنتشر وتتمدد.. لذا ما زال يصبو إلى زيارة الأرض من جديد..»

قلت له وأنا أنزع عويناتي لأنظفها من غبار الجير:

- «دعني أخمن.. هذه المرّة لن يأتي قبل أن يعد جيشًا كبيرًا من الشاحبين.. صحيح أنهم ليسوا (فامفيري) حرفيًا لكنهم يشربون الدم ويعيشون في الظلال مثله...»

في ثقة قال:

- «هأنتذا تجيد الاستنتاج هذه المرّة... لقد ولد الرعب في (هالماجيو) ليبقى... ومنه تخرج جيوش الظلام إلى العالم كله..

جيوش لا تدين سوى بدين وواحد: الطاعة لـ (هو) الذي يعيش في الظلال..

«لقد ظل الباب مغلقًا قرونًا.. لكنّ عذراء حمقاء دخلته كي تدمي رأسها داخل الكهف..

«كان دمها هو المفتاح الذي فتح أقفالًا لم يمسسها أحد طيلة قرون كاملة.. وسرعان ما وجدت نفسها في (جانب النجوم) تتناول أسرار الشاحبين، عادت إلى الأرض كانت قد صارت الأولى... عليها أن تضم آخرين وآخرين وآخرين..»

ظل يردد (آخرين) همسًا حتى حسبته قد جن ثم أدركت أنه فقط منتش بالفكرة..

سألته وقد بدأت القصة تتضح أكثر:

- «وماذا ينتظر (فلاد) إذن؟!»

- «ينتظر أن تصير (هالماجيو) كلها من الشاحبين بعدها يغزو (بوكوفينا) ثم (بوخارست) ثم....»

- «وكيف يصير الشاحبون شاحبين؟»

- «لا بد من الإكسير أولًا..»

ابتسمت في إنهاك.. الحق أن أحداث ليلة واحدة في (هالماجيو) كانت أكثر مما يحتمله من في سني وضعف بنيتي..

لكني تماسكت وسألته:

- «إكسير؟ وهل اسمه (فامفيرين) أو (دراكيولال) أو (فلاديمايسين) مثلًا؟ لا أعتقد أن شركات الأدوية ستتحمس له كثيرًا في مصر..»

للمرة الثانية فهمت أن لفظة (مزاح) لا معنى عنده.. إذ قال:

- «الإكسير هو مزيج من دماء (دراكيولا) ونبات الـ (وولف بين) الذي تحيط به الأساطير في هذا البلد..»
- «هل تعني أن دماء (دراكيولا) موجودة ها هنا؟»
- «إنما جلبتها العذراء ـ التي فتحت الباب - معها من (جانب النجوم).. ويسقونه للمرء قبل امتصاص دمه أو استنزافه..
«لولا الإكسير ماظل أحدهم حيًّا بعد تجربة كهذه.. فالإكسير يجري في العروق مجرى الدماء.. ويطرد الدم القديم الفاسد..»
- «تريد القول إن الشخص يعيش بدماء (دراكيولا) بعد هذا، ولا يعود بحاجة إلى دمائه الأصلية.. إن هذا شبيه بنقل الدم

التبادلي الذي يجرونة للأطفال المصابين بالصفراء...»
قال باللاتينية:
- «أنت تقول..»
ثم استطرد في وصف قصة الشاحبين:
- «ومن هنا نبدأ يا د. (رفعت).. إن المختار في أثناء سريان الدم الجديد في دمه يُلقّن مبادئ الطاعة لـ (هو)، وحين يفتح عينيه يكون قد غدا من الشاحبين في مجتمع (إنفرنوس) التي كان اسمها (هالماجيو)..»
سألته سؤالًا أخيرًا وأنا أمنع عيني من الانغلاق:
- «وماذا ستفعلون بنا الآن؟»

كنت أريد منهم أن يشربوا دمي وينتهوا.. المهم أن يتركوني أنام.. المهم أن يرحموني من الصياح والحركات الهستيريّة.. والمهم - بالذات ـ ألا يجعلوني أرشف ذلك الإكسير اللعين.. دعوني أمت في هدوء من فضلكم ولا تحرموني تلكم الراحة الأخيرة..

قال د. (لوسيفر):

ـ «الحق أنني بوجودك أسعد، ولك قلبي يطرب.. عرفت من اللحظة الأولى - حول (التاروت) ـ أننا سنلتقي مرارًا.. وفي كلّ مرّة تتعلم الدرس الدائم: الشر لا ينهزم.. يجب أن تتعلم النظرة (المانوية) للكون ككل حيث الشر ضروري وقادر..»

بحثت عن لفظة إنجليزية لها رنين لفظة (دماغك!) التي نستخدمها في مصر لتسفيه الآراء السخيفة، فلم أجد..

لكنه ـ كما لي أن أتوقع ـ قال في حزم:

- «لا تجهد نفسك.. لقد سمعت اللفظة العربيّة تتردد في ذهنك.. وفهمت معناها.. لكني ـ لك أنصح ـ أتعشم أن تتعلم شيئًا من المصير الرهيب الذي ينتظرك وزميلك..»

ودون كلمة أخرى غادر المكان..

ومكثت وحدي في الظلام أرمق الشمعة المحتضرة..

❋ ❋ ❋

حكاية الشاحب الرابع

يحكيها هو نفسه

- ١ -

قال (بيلاسكو):

هو ـ الذي يمشي في الظلال ـ أمرنا أن نتركهما حيين..

* * *

لقد كنت واقفًا بانتظار خروج الغريبين - الصحفي البدين من (بوخارست) والرجل الذي يشبه دودة (الإسكارس) ـ من الكهف..

كنا نرى المدخل المظلم على ضوء النيران التي أشعلناها في الساحة، ولا بد

أننا لبثنا ساعتين أو أكثر ننتظر..

- «حررروني.. حررروني!»

كذا صاح (أنطونسكو) ابن القصاب، وكان قد صار منا تمامًا بعدما جرع الإكسير.. لذا هوى (بوريس) بمديته على الحبل ليقطعه، وهوى آخر الشاحبين بدوره إلى الأرض، وراح يحبو على أربع محاولًا الاقتراب منا..

نظرت للوراء فوجدت ذلك الزائر الغامض الذي يقولون إنّه جاء من (المجر) ليكون بيننا.. يبدو اسمه د. (فرانتز لوسيفر).. وهو اسم يناسبه تمامًا.. إن (لوسيفر) تعنى الشيطان.. وهو أنسب نعت لهذا الرجل الغامض المسربل بالسواد في كل شيء: عينيه.. شعره.. بذلته.. وحتّى

صوته.. صوته كان أسود ولا أدري كيف..
كنت أهابه بشدة، لكنّ الجميع قال لنا إن هذا شرف لا بد أن نسعد به.. ولذا تظاهرت بالسعادة..
وحين خرج لنا الرجلان من الكهف لم أصدق أنهما بهذه البلاهة، لقد دهنا وجهيهما بالطبشور متظاهرين بأنهما منا.. كدنا نفتك بهما لكنّ (لوسيفر) أمرنا ألا نفعل.. وقال بلهجة لا يمكن مناقشتها:
- «إن (هو) - الذي يمشي في الظلال - لراغب في رؤيتهما..»
ثم اقتاد دودة (الاسكارس) إلى داري، وفتح بابها لا أعلم كيف.. ومكث معه بالداخل ساعة أو أكثر..

ثم خرج من الدار بقامته المديدة، ووقف أمام (الروح الكبرى) ليقول لها في غطرسة:

- «هذان لن يموتا الان.. بل موتًا يموتان حين يعود (هو)..»

قالت له (الروح الكبرى) وهي تحني قامتها المنهكة:

- «لكنّ أين نضعهما؟ سيفران حتمًا ما لم يصيرا منا..»

أشار إلى داري، وتساءل:

- «دار من هذه؟»

- «دار (الدم) وامرأته (حدأة الصحراء)..»

- «إذن هما سجينان فيها حتى يأتي (هو)..»

ونظر لي - كيف عرف أنني (الدم)؟ - وقال:

- «أنت لهما الحارس والعين والمضيف.. لو هربا أو أؤذيا فلك مع (هو) - الذي يمشي في الظلال - حساب أي حساب...»

هززت رأسي مذعورًا:

- «كما تقول يا سيدي..»

هنا كان الفجر قد دنا.. ساعتان تفصلاتنا عنه، ورائحته النقية تمزق رئاتنا بألف خنجر.. لذا صاحت (الأخت الكبرى) آمرة:

- «عودوا إلى دياركم يا ابناء (إنفرنوس).. ناموا في مملكة (خريولسن) حتى تموت شمس يوم جديد..»

جررت الصحفي اليدين من كمه، فاستجاب لي في رخاوة.. لقد ذهب عقله شعاعًا من هول ما رأى في الكهف.. هذا واضح تمامًا..

دخلت داري ومعي ستة من إخواننا..

وكان الأصلع النحيل جالسًا على المنضدة في مدخل الدار، وأمامة شمعة ذابلة لم يبق فيها سوى لهب يتراقص في بركة من الشمع الساخن.. فما إن رآنا - وكان شارد الذهن - حتى رفع وجهه المرهق نحونا، وقال في هدوء المستسلم:

- «هذه إذن لجنة الاستقبال.. هل ستصفون دماءنا الآن؟ إنني لن أشرب إكسيركم أبدًا.. سيكون عليكم قتلي من دونه..»

وضحك ضحكة ساخرة جعلته يسعل..

بالطبع لم يفهم أحد الواقفين حرفًا لأن الرجل تكلّم بالإنجليزية، لكني فهمت لأنني مدرس.. وأقرأ بالإنجليزية أكثر مما أقرأ بلغتي الرومانية..

لذا قلت له بلغة رديئة نطقًا، صحيحة تركيبًا:

- «سيدي.. لن يكون هناك شيء من هذا.. إن هذه داري أنا (الدم).. وأنت ضيفي..»

كما توقعت سألني في بلاهة:

- «اسمك (الدم)؟!»

رددت بما وسعني من تهذيب:

- «بعد تحولي.. نعم.. هذا هو اسمي.. أمّا اسمي القديم الآثم فهو (بيلاسكو)..»

- «(بيلاسكو)..» - ونظر للسقف كأنما يتذوق الاسم - «اسم مرعب بدوره.. ربما هو أكثر إرعابًا من اسم (الدم)..»
انحنيت.. وقلت له التحية الرومانية التقليدية:
- «أهلًا بك في داري.. إليها تدخل حرًا ومنها ترحل سالمًا.. فقط بعد رحيلك اترك لنا بعضًا من السرور الذي جلبته معك..»
ابتسم وهو ما زال جالسًا وقال:
- «ثق أنني سأترك أشياء كثيرة بعد رحيلي.. بقع دم وما إلى ذلك.. الآن هل ستربطني بالحبال إلى المقعد؟»
- «سيدي.. إنك تخمن أفكاري قبل أن تخطر لي!»

* * *

ربطناه والصحفي المعتوه إلى مقعدين، ثم حملنا كل مقعد إلى القبو..

طبقا لم أكن راغبًا في كل هذا.. لكني لن أكون المسئول عن هروب هذين حينما يأتي (هو)..

وجاءت (حدأة الصحراء) امرأتي الجديدة، تدفع بطنها المنتفخ أمامها، وتسألني وهي ترمقهما مقيدين:

- «هل ستطعمهما؟»

- «بالطبع.. فهما غير مؤهلين لشرب الدماء بعد..»

- «وأي شيء نطعمهما؟ ليس لدينا سوى الفئران..»

فكرت قليلًا.. ثم تذكرت أن لدينا بعض اللحم المجفف في الكرار، لم نأكله منذ بدأ التحول، لذا طلبت منها أن تقدم بعضه لهما حتى لا يموتا جوعًا:

- «إن موتهما يتساوى عند (هو) مع فرارهما.. كلا الحالتين فرار من قبضته، ولا أحب أن أنتظر لمعرفة مصيرنا وقتها..»

كانت تئن وتمسك ظهرها..

شعرت بشيء كالشفقة يتحرك في صدري، لكنني قمت بوأد هذا الشعور فورًا.. لقد تم تطهيري من الوهن البشري منذ زمن سحيق، وصارت أشياء مثل الحب والعطف والرقة نوعًا من الإهانة لفكرة وجودنا ذاتها.. كان النهار يدنو.. لذا

دخلنا إلى غرفتنا التي أسدلنا ستائرها، ولم تدخلها نسمة هواء منذ دهر..

دخلنا إلى الفراش، وغبنا في نوم عميق..

❋ ❋ ❋

وحلمت.. حلمت بـ (هو) - الذي يمشي في الظلال ـ قادمًا في الغبشة.. ورأيت (حدأة الصحراء) تهرع كالملهوفة كي تسقط على قدميه هاتفة:

ـ «سيدي وسيد سيدي! لقد أعددنا الأرض لقدومك..»

عندها رأيته يفعل الشيء الذي توقعته، ولم أجد في حلقي صوتًا كي أنذرها منه.. رأيته يمد يدًا مخلبية ليعتصر رقبتها.. قال شيء في قلبي: «هي امرأتك وواجبك إنقاذها».. قال شيء في عقلي: «لا.. إنما هي جاريته يفعل بها ما يشاء..»

لكنّ (حداة الصحراء) تصرخ.. تئن تتوسل إليّ أن......



ربطناه والصحفى المعتوه إلى مقعدين ، ثم حملنا كل مقعد
إلى القبو . .

آه آه.. آه ه!

* * *

وصحوت على الأنين، فنهضت في الظلام أرى ما هناك.. كانت تتشبث بالفراش وتعتصر الملاءات في عنف..

ـ «(بيلاسكو).. يبدو أنه.. آي! قادم!»

انتظرت لحظة حتى عرفت الخط الفاصل ما بين نومي ويقظتي.. ثم هتفت مذعورًا وأنا أتراجع للوراء:

ـ «مستحيل يا (إليصابات).. إن حملك لم يتجاوز ستة أشهر بعد..»

ضغطت على أسنانها، وقالت:

- «إنّه أول طفل شاحب.. أي! أي أنه ليس كالبشر.. آي! هلمّ استدع (الروح الكبرى) حالًا آآآن.. آي!»
- «لا!»
قلتها في جنون..
لقد ماتت (إيزبيا) على يدي (الروح الكبرى)، ومات وليدها.. فكل ما كانت العجوز تعرفه عن التوليد هو أن تجذب الوليد بأقصى قوتها، وباستخدام مخالبها السوداء...
كلا.. لن أسمح لها برؤية (إليصابات)..
وهنا فطنت للمرة الأولى أنني استعملت اسمها القديم.. وهي كذلك استعملت اسمي القديم (بيلاسكو).. غريب هذا!

لكنها تصرخ.. وصراخها كفيل بإيقاظ الموتى...
لقد نسيت تمامًا هذه اللحظات.. ليلة ميلاد (كوثار) منذ ستة عشر عامًا.. كانت أمّه تئن وكنت أنا أصرخ كالمجنون، وجاء د. (ميخائيل) يلهث من داره ليساعدها على الولادة..
ولكن.. من يساعدها الآن؟ لا أحد من الشاحبين، وصراخها يقول لي إن الأمر لن يكون سهلاً.. لن يتم تلقائيًا كما تمنيت...
دودة (الاسكارس) في القبو؟ سمعت د. (لوسيفر) يناديه بلقب (دكتور).. فهل هو طبيب أم....؟
هل أطلب عونه؟ كيف أثق به؟ الحق أنه - برغم قبحه - يبدو موحيًا بالثقة.. له عينان

صافيتان منهكتان ترمقان الكون في أسى.. هل يسامحنى (هو)؟ فليذهب (هو) إلى الجحيم إن لم يكن فيه.. إن أم طفلي في مأزق..

* * *

كان ضوء النهار يتسلل إلى القبو.. آلمني جدًا لكني تحاملت ودخلت.. ولشدة دهشتى كان الطبيب النحيل مستيقظًا.. قال لي بعينين حمراوين من فرط الإرهاق، وهو مقيد إلى مقعده:.

- «إن هذه الصرخات غير غريبة على سمعي.. إما أنها طريقة تعذيب جديدة

خاصة بكم، وإما أنّ هناك امرأة في ولادة متعسرة..»

قلت له وقد سرني أنه استنتج بسرعة:

- «امرأتي تلد ويبدو أن الأمور ليست على ما يُرام.. هل يُمكنك مساعدتي؟»

ابتسم.. وسألني أن أصلح وضع عويناته على أنفه، ثم قال:

- «كنت أتمنى أن أتشفى فيك وأقول: دع (هو) يساعدها.. إلا أنني عاجز عن رفض علاج مصاصي الدماء أنفسهم.. لكني أنذرك.. أنا لم أر ولادة منذ عام ١٩٤٩.. فأنا - لسوء حظك - طبيب باطني..»

- «هل يعني هذا أنك ستؤذيها؟»

ضحك برغم إرهاقه، وقال:

- «ما زلت أذكر الخطوط الأساسية.. ولن أحاول إخراج الطفل من إصبع قدمها، لو كان هذا يثير قلقك..»
لم يكن أمامي بُدَ.. لذا فككت قيوده.. وأمرته أن يتبعني إلى غرفة النوم.. إنها لمقامرة لكنّ ما باليد حيلة..

❋ ❋ ❋

ما إن دخل الحجرة حتى صار هو الآمر الناهي..
- «افتح هذه الستائر اللعينة.. أريد بعض الضوء..»
فعلت على مضض.. إن هذا سيؤلمها أكثر، لكنّ هذا البشري لا يملك الرؤية في

الظلام مثلنا.. فلنتحمل..
- «هل لديك قفاز؟ لا؟ حسن سأجد حلًا.. اريد سكينًا ورباطي حذاء أو قطعتين من حبل سميك..»
ونزع سترته وربطة عنقه، ورفع كم قميصه..
سألته في توتر:
- «هل أقوم بغلي بعض الماء؟»
- «لماذا؟»
- «كلهم يفعلون هذا..»
- «دعك من هذا الهراء.. ستحرق نفسك أو تحرقها.. لقد دخلت كلية الطب في بلادي كي أعرف لماذا يغلي الناس الماء وقت الولادة.. لكني - بعد عشرين عامًا أو أكثر - لم أعرف السبب بعد..»

وبدأ العمل وسط صراخ (إليصابات).. وشتائمها الرومانية للطبيب...

* * *

كانت عملية قاسية مرهقة.. ولا بد أنني كنت أبكي بصوت مسموع بينما راح هو - ببطء شديد - يحاول تبديل وضع الجنين..

استغرق الأمر نحو ساعة.. وهنا سمعت صوتًا جديدًا يضاف لعواء المراة.. كان هذا عواء رضيع.. ابني!

- «حمدًا لله!»

قلتها بصوت عالٍ، وقالتها زوجتي بالرومانية معي.. فنظر لي (رفعت) - كان هذا هو اسمه - في دهشة.. كان الدم يغرق

وجهه وقميصه وعويناته، على حين راحت قطرات العرق تغسل هذا الدم..

قلت في إصرار:

- «نعم.. حمدًا لله!»

غمغم وهو يهز رأسه:

- «حسبتكما لا تستطيعان لفظ هذه العبارة..»

ثم رفع ذراعه اليمنى حاملًا قطعة اللحم المتسخة بدماء سوداء:

- «هو ذا ابنك.. شاحب ابن شاحب.. لك أن تفخر به.. لقد كدنا نفقده.. ويبدو أنني طبيب بارع حقًّا.. لم أعرف هذا من قبل..»

ورأيته يربط الحبل السري على مسافتين متساويتين برباطي الحذاء، ثم يقطع ما

بينهما بالسكين..
كانت الأم قد نامت حين رفع الوليد من على بطنها وناوله لي ثم راح يستكمل ما بدأه..
تأملت الصغير الصارخ، وأدركت أنه في شحوب هذه الورقة.. له ملامح غريبة حقًّا.. ملوث بدم أسود لا أحمر..
ارتجفت هلعًا.. هذا - على قدر علمي - أول طفل يولد ليمص الدماء من اللحظة الأولى.. ماذا سترضعه أمّه؟ أدماء؟ أم هو لا يرضع أساسًا، ولسوف يشاركنا حفلاتنا الصاخبة عما قريب؟ يا للبشاعة!
كان (رفعت) قد فرغ من عمله..
قال لي وهو يرتجف إرهاقًا:
- «هل.. هل لديك ماء؟»

ثم كاد يتهاوى على الأرضٍ، فهرعت أريحه إلى الجدار.. قال لاهثًا:

- «جيب البذلة.. الأقراص.. قرص تحت لساني..»

فعلت كما طلب وأخرجت قرصًا من العلبة التي كتب عليها (نترات قصيرة المفعول)، ودسسته تحت لسانه كما أوصاني..

مرت دقائق ثم بدأ يستعيد قواه.. لقد كان قلبه معتلًا بشدة كما هو واضح.. وكانت الليلة الرهيبة التي بدأها بمصاصي الدماء وأنهاها بالتوليد أقوى من قدرته على التحمل.. (دودة اسكارس) مريضة تستجمع أنفاسها..

وللمرة الثانية تحرك في صدري شعور الشفقة..

❋ ❋ ❋

- ٢ -

غسلت وجهه ويديه بالماء، ثم عاونته على انتزاع قميصه الدامي، وجلبت له قميصًا نظيفًا من حاجياتي.. فمنذ أن تم التحول وقمصاني لم تمس لأنني لم أستبدل ثيابي قط..

للمرة الأولى منذ أشهر لفظت الكلمة:

- «شكرًا..»

قال وهو يرتجف بردًا وإرهاقًا وربما جوعًا:

- «أشكرك أنا أيضًا على إنقاذ حياتي..»

واقتدته إلى القبو حيث كان صاحبه غافيًا على مقعده..

- «د. (رفعت)؟»
- «هم م م؟»
- «سأثق بكلمتك.. هل تعدني بشرفك ألا تحاول الهرب لو لم أقيدك؟»
نظر لي وابتسم.. وغمغم:
- «أعدك بشرفي لمدّة ثماني ساعات أنام فيها... لكني سأحاول الهرب بعدها.. ثق بهذا..»
- «إذن انت لم تترك لي خيارًا..»
- «أظن هذا..»
وفي طاعة جلس على مقعده، على حين رحت أحكم ربطه بالحبال.. ثم تركته لألحق بزوجتي وابني في الغرفة المظلمة.. لقد بدأ النور يزعزع تركيزي إلى حدٍ ما.. وأشعر بملايين الإبر تنغرس في جلدي...

ويبدو أنني نمت قبل أن أندس تحت الغطاء..

* * *

كان الغروب دانيًا حين صحوت من النوم، وجدت (حدأة..) تلقم الرضيع ثديها وقد جلست في الفراش.. سألتها ملهوفًا:

- «أترضعينه لبنا حقًّا؟»

- «لا أدري.. يبدو مثله.. لكنّ لا تنس أننا لم نعد بشرًا!»

تأملت المشهد بضع دقائق، ثم تذكرت أسيرينا في القبو.. فهرعت إليهما حاملًا قطعة من اللحم المجفف..

كان الظلام دامسًا هناك لكني كنت قادرًا على الرؤية بالطبع، وبحثت عن شمعة أشعلها.. كان الطبيب أفضل حالًا بعد النوم، لكنّ القيد قد آلمه طبعًا، وجعل عضلاته تتصلب.. أما الآخر فمن الجلي أنه تحول إلى نبات.. نبات لا يملك أفكارًا خاصة سوى أحلام غامضة..

فككت قيد الرجلين وقدمت لهما الطعام، ولم يكن الصحفي قد أبدى ما يدل على أنه يعرف معنى الأكل، لذا دسست بعض الشرائح في فمه دسًّا.. وبعد ثوان بدأ يلوكها بالغريزة..

أخيرا سألني (رفعت) وفمه ملىء بالزاد:

- «هل الرضيع بخير؟»

- «بخير..»

- «أهو طبيعي؟ أعني.....»
- «حتى هذه اللحظة يبدو كذلك.. ما عدا ملامحه الغريبة وشحوبه..»
بعد ثوان قلت له وأنا أنظر للشمعة:
- «د. (رفعت).. أنا راغب في معاونتكما على الهرب.. فأنتما لا تستحقان الهلاك..»
- «وأنت لا تستحق ما سيحل بك بعدها..»
- «د. (رفعت).. ألم تفهم بعد؟»
ورفعت الشمعة لتضيء وجهي المتسلخ.. وأردفت:
- «نحن لم نعد بشرًا يستحقون ولا يستحقون.. نحن مسوخ يجب تدميرها.. لقد عرفت هذا حين رأيت الرضيع أمس.. لا

أعرف كنه (هو) هذا.. لكنّ قبضته على روحي قد بدأت تتراخى.. وإنني لألعنه..»

* * *

وفي الساعة التالية حكيت للطبيب القصة من بدايتها.. الوباء الذي عادت به (ناديا) من الكهف لتنشره بيننا.. كل شيء.. إلى لحظة دخولهما داري..

سألني وقد صار يعرف ما أعرفه..

- «أنت كنت مدرسًا مثقفًا إذن؟»

- «بالتأكيد.. ومتدينًا كذلك»

- «لهذا كان تأثير دماء (دراكيولا) عليك ضعيفًا.. كما أن التنويم المغناطيسي لا يؤثر في أقوياء الشخصية.. إن روحك لم تفسد بعد..»

ثم سألني وهو ينظر في عيني:

- «أين يوجد دمه الخطر هذا؟»



ورفعت الشمعة لتضيء وجهي المتسلخ . . وأردفت :
ـ «نحن لم نعد بشرًا يستحقون ولا يستحقون» . .

- «من المصادفة أنهم تركوه عندي... لأنني أعرف كيف تحفظ هذه الأشياء..»

- «هل لي أن أراه؟»

مددت يدي إلى جيب داخلي في سترتي الصوفية، وأخرجت الأنبوب الصغير.. الأنبوب الذي عادت به (ناديا هالماسكيا) - أخت الذئاب كما نسميها الآن - من (جانب النجوم)، وعرضته على الطبيب الناحل..

قال وهو يتأمله بين أنامله:

- «هذا مخيب للأمل.. كنت أحسبك ستجلب قارورة فاخرة الشكل مفعمة بالدماء، فإذا بأنبوب اختبار ملىء بمسحوق.. بمادة كالفلفل الأسود..»

- «هو كذلك.. يبدو أنهم يجففونه هناك.. نحن نخلط مقدار جرام واحد بمقدار أربعة

جرامات من الـ (وولف بين).. و...»
قاطعني مبتسمًا في خبث:
- «كخطوة أولى.. هل لديك فلفل أسود ها هنا؟»
- «اظن هذا.. لكنّ هل تنوي؟!»
- «إن الإغراء أقوى مني.. على الأقل سيعجز هؤلاء القوم عن ضم آخرين مهما شربوا من دماء.. إن أفضل خدمة تقدمها لإنسان هي أن تسمح له بالموت دون أن يشرب هذا الإكسير اللعين..»
ارتجفت يدي.. وفكرت لحظة في منعه.. فقال:
- «(بيلاسكو).. أأنت عدوي أم صديقي؟ هل تريد إنهاء الكابوس أم إحياءه؟ لا يوجد حل وسط.. ولا وجود للون الرمادي..»

ثم ناولني الأنبوب، وهو ينظر في عيني بثبات:

- «يمكن الخلاص منه في المرحاض لو كان عندكم واحد..»

- «سأفعل..»

- «ثم املأ الأنبوب بالفلفل الأسود.. لن يلاحظ أحدهم الأمر إلا فيما بعد..»

- «حسن...»

وحملت الأنبوب في الظلام، شاعرًا بأنه يرتجف في يدي.. فلو كان ما أحمله ثعبان جرس لكنت مطمئنًا أكثر..

وفي الحمام فتحت سدادة الأنبوبة وأخذت شهيقًا عميقًا.. ثم أفرغت المسحوق الأسود في المرحاض، دقائق كاملة وقفت فيها أرمقه وهو ينتشر على سطح الماء..

وأدركت - في رهبة - أن الماء يصطبغ باللون الأحمر القاني..

ضغطت على زر الطرد كي لا أرى أكثر.. وهدر الماء..

هدر حاملًا دماء (دراكيولا) إلى ما تحت الأرض...

* * *

عدت إلى (رفعت) في القبو، ورفعت الأنبوب المليء بالفلفل الأسود بين سبابتي والإبهام.. وقلت بصوت متحشرج:

- «قد تم كل شيء..»

- «أحسنت..»

ثم نظر إلى ساعته، وقال:

- «أرى أن تقيدنا وتخرج لهم كي لا يشك أحد في شيء.. هذا ميعاد خروجكم للاحتفال..»

فعلت كما طلب، ثم غادرت الدار مبلبل الأفكار..

كان عليّ أن أخبرهم بميلاد ابني، وأن أتركه لهم كي يجعلوه منهم بصورة نهائية..

كنت ـ كما قلت ـ مبلبل الفكر، ولهذا لم أنظر تحت قدمي..

وبالتأكيد فاتني أن أرى ما يحدث في البئر الذي تصب فيه ماسورة مجاري بيتي..

❋ ❋ ❋

- ٣ -

وقفت قرب النار المضطرمة التي أشعلوها هذه الليلة في عربة قديمة، كانت الخيول تنقل التبن بها، وكانوا جميعًا هناك ينتظرون بدء الحفل لهذه الليلة.. والضحية فتاة من القرية جاء بها (بوريس) إلينا.. من الواضح أنها كانت معجبة به، والإعجاب جعلها تصدقه.

الآن تقف ذاهلة لا تجد الكلمات، وهي ترى كل هذا الصخب وكل هذه المسوخ.. وتشعر بأن شيئًا ما كريهًا يُراد بها لكنّها لا تعرف ما هو..

لم تكن قادرةً على الفرار.. فقد ربط (بوريس) حبلًا إلى عنقها، وربط طرفه الآخر إلى عمود الإنارة الذي انتزعنا مصباحه من زمن..

لكنهم لم يبدءوا الاستنزاف بعد...

قال لي (الكابوس) وهو يرفع قارورة الإكسير:

- «هات بعضًا من المسحوق يا (دم)..»

نظرت له، وابتلعت ريقي.. كان يجب أن أكون طبيعيًا.. ومددت يدي في جيب سترتي وأخرجت الأنبوب، وبطرفي إصبعي تناولت ما قدرت أنه جرام من المادة ونقلته إلى القارورة، ثم رحت أرج الخليط بضع مرات..

قربوا فوهة القارورة من ثغر الفتاة، فتراجعت مجفلة وصاحت:

- «أنتم لن تؤذوني! فقط قولوا هذا!»

لكنّ أحدًا لم يكن يملك نية للكذب..

ودون جهد كثير لامست الفوهة شفتيها، فجرعت جرعتين وهي ترتجف هلعًا.. سعلت مرّتين ثم هدأت..

ورأيت (بوريس) يربط قدميها بالحبل توطئة لرفعها.. فصحت محاولًا تعطيلهم بعض الوقت:

- «يا إخوان.. قد أنجبت (حدأة الصحراء) طفلًا ذكرًا أمس!»

تعالى صياحهم، وسمعت أكثر من واحد يقول أشياء على غرار (كيف لم تخبرنا؟) (إنّه لخبر مبارك!).. إلخ...

هنا صاحت (الروح الكبرى) بصوتها الغرابي..

- «هو أول طفل شاحب يأتي للأرض! طفل لـ (هو) (الذي يمشي في الظلال) منذ أول لحظة في حياته.. ولكن لم لم تنادني وقت الولادة؟»

كي لا تقتلي زوجتي أيتها الساحرة الشمطاء!

تمنيت أن أقولها لكني لم أفعل.. وقلت في حياء:

- «تم الأمر بسرعة لم أصدقها..»

- «إذن هات الوليد كي نبدأ طقوسنا!»

ارتجفت لتصور ما سيحدث.. نحن لم نر مشهدًا مماثلًا لكنّ يمكن تصوره دون جهد.. لا بد أن كتاب (إنفرنوس) الذي

تحمله المرأة تحت إبطها يحوي العجب العجاب..
ترددت برهة، وغمغمت شيئًا لا أعرف أنا نفسي ما هو..
قالت لي مستحثة:
- «هلمّ يا (دم).. هات الطفل.. هات (الشاحب).. هذا هو أسمه..»
غلى الدم في عروقي - لو كان فيها دم بعد - على الوضع المزري الذي صار معه الأب عاجزًا عن تسميته ابنه.. بل ولا يجرؤ على منع من يرغبون في إيذائه من عمل ذلك..
هنا سمعت صوتًا ببريًا قوي النبرة يقول:
ـ «أعتقد ـ وهو اعتقاد له ما يبرره - أن الأخ غير سعيد وغير راض.. وانه

ليصطنع اللطف اصطناعًا!»
نظرنا لنرى من هو..
كان د. (لوسيفر) واقفًا.. كتلة من اللون الأسود الشرير.. لا تعرف أبدًا متى جاء هذا الرجل ومن أين؟ لكنه يظهر فجأة وراء ظهرك..
لقد كان هناك، وكانت عيناه السوداوان الثابتتان الخاليتان من التعبير تتفحصاني في اهتمام...
إنه يعرف! بحق السماء.. هذا الرجل يعرف كل شيء.
قلت محاولًا أن أبدو طبيعيًا:
- «لا شيء يدعوني إلى أن أكون غير سعيد يا سيدي، وقد صرت أبًا للمرة الثانية منذ ساعات..»

عاد يسألني بنفس النبرات الثابتة:

- «وكيف حال ضيفيك؟»

- «بخير حال.. وهما مقيدان كشاتين قبل الذبح..»

- «إذن هلمّ! هات الطفل.. وبرؤيته تنعم عيوننا..»

فارقتهم عائدًا إلى داري وأنا أشعر بنظرات الشك في عيونهم تكاد أن تخرق ظهري.. لقد صارت أيامي هنا قصيرة حقًّا..

وإذ مددت يدي إلى مقبض الباب، سمعت صرخة الفتاة الشنيعة، فعرفت أنهم بدءوا حفلهم.. وأنها تواجه الآن ما لاقاه (أنطونسكو) ابن القصاب أمس...

الشنيع هنا أن (أنطونسكو) كان من الواقفين حولها الآن، وهي تتدلى كالوطواط من قدميها المربوطتين إلى الشجرة!

* * *

نزلت إلى القبو..

كان (رفعت) يتأمل صديقه في قلق.. وبرغم الظلام كان بعض الضوء يأتي من الخارج، حيث راح اللهب يضطرم، أدركت أن الصحفى البدين لم يتحسن قط.. ما زال يرمق الفراغ مذهولاً وقد تدلت شفته السفلى، وسال منها خيط لعاب إلى صدره...

فما إن رآني (رفعت) حتى سألني:
- «لم عدت؟»
قلت وأنا أفك قيوده بسكيني:
- «إن ذلك الغامض المدعو (لوسيفر) يرتاب في امري..»
عض شفته السفلى في أسى، وقال:
- «لم يخطر هذا ببالي.. إن الرجل يقرأ الأفكار فحاذر منه..»
- «لم يعد ثمّة وقت كاف للحذر.. عليك أن تفر من هنا..»
- «لن يكون دون صاحبي..»
ساعدته على النهوض وهو يثب كاللقلق من تصلب عضلاته، وأعنته حتى دنا من النافذة الخاصّة بالقبو، وهي نافذة يقع

نصفها السفلي تحت الأرض، أمّا نصفها العلوي ففي مستوى الشارع..

وعلى ضوء اللهب أشرت إلى دار على بعد مائة متر...

- «هل ترى هذه الدار ذات الباب الأحمر؟»

هزّ رأسه أن نعم، وهو ينتظر ما سأقول..

- «هذه دار (الروح الكبرى)..»

- «أعرف هذا.. لقد قرعنا بابها مرة..»

- «إن للقبو فيها نافذة تشبه هذه.. كل ما عليك هو تهشيم الزجاج بحذر، فالهبوط إلى القبو..»

- «شيء جميل.. لكني لا اعرف ما الممتع في هذا؟»

- «هناك في القبو ستة صناديق.. وهي ملأى بالديناميت كلها..»

عاد يواصل أسئلته الغبية.. (أنا أمقت كثرة أسئلة هذا الرجل):

- «ولماذا تحفظ عجوز شمطاء مثلها بالديناميت؟ إنه لا يصلح لصنع الحساء على قدر علمي..»

صحت فيه غاضبًا، وقد نفد صبري:

- «لا وقت للمزاح؟ كان هذا (الديناميت) لدى فريق من عمال المناجم مروا بالقرية منذ شهرين، وقد قتلناهم جميعًا.. لكننا نقلنا الصناديق إلى دار (الروح الكبرى) لأننا افترضنا أن (هو) سيرغب في اقتنائها حين يجيء.. والآن سأشرح لك: ستقوم أنت بالتسلل إلى القبو، وتملأ جيوبك بأصابع

الديناميت.. ثم تهرع إلى الكهف، وتبدأ في غرسها عند المدخل.. ومن ثُمَ تفجر باب الجحيم هذا.. ستعيد إغلاق فتحة (جانب النجوم) وتفر إلى الجانب الآخر من القرية.. وحين تعود لا تعد وحدك..»

قال وهو يشعر بخطر الموقف:

- «ومن الأحمق الذي سيتركني أفعل كل هذا؟»

- «سأشغلهم عنك.. وثق أن كثيرًا من الضجيج سيحدث مما يمنحك نصف ساعة تعمل فيها بأمان..»

- «وكيف أفجر الديناميت؟ بقداحتي؟»

- «يوجد جهاز تفجير.. ومجموعة من الأسلاك.. لا أدري ما إذا كنت تجيد عمل هذا لكني أنصحك أن تجيده..»

سألني كطفل ينوي القيام بعمل مبهر للمرة الأولى في حياته:

- «جهاز تفجير من الذي نراه في السينما؟ أعني علبة معدنية فوقها ما يشبه الكباس؟»

- «أنت رجل ذكي.. المفترض أن يغلق هذا الكباس دائرة كهربية ترسل شرارة إشعال في الديناميت..»

هنا سمعنا الطرقات العنيفة على بابي..

- «افتح الباب يا (دم)!»

كانت طرقات غير مرحبة وغير ودود.. طرقات تتهمني بالخيانة.. من الواضح أنهم وجدوا الفتاة قد ماتت بعد استنزافها، وعرفوا كل شيء..

صحت في (رفعت) وأنا أرفع مصراع النافذة لأعلى:
- «هلمّ! اخرج حالًا!»
حشر جسده النحيل معدوم اللياقة في الفتحة، وتساءل محتجًا:
- «ولكن.. ماذا عن....؟»
- «أسرع يا أحمق!»
ودفعته دفعًا إلى خارج النافذة، بينما الطرقات تتعالى أكثر:
- «افتح يا (دم)! لقد اكتشفنا خيانتك!»
أغلقت مصراع النافذة، وهرعت ركضًا أغادر القبو...
دخلت غرفة النوم حيث كانت (إليصابات) جالسة في الظلام تحتضن

ابننا، وقد اتسعت عيناها هلعًا.. ومرتجفة سألتني:

- «ماذا يريدون؟»

قلت وأنا أخرج بندقيتي من الخزانة، وأحشوها بالخراطيش:

- «يريدون الانتقام!»

- «لماذا؟ ماذا اقترفت؟»

تأكدت من أن البندقية محشوة، فأغلقتها.. وثَبّتُّ قاعدتها إلى كتفي واتخذت وضع الرماية.. قائلًا:

- «اقترفت كل ما يعتبره مصاصو الدماء إلحادًا.. ويعتبره البشر عملًا خيرًا.. لكنّ دعيني أؤكد لك...»

واتجهت نحو الباب وأنا أسمع الطرقات توشك على اقتلاع الباب:

- «لن يأخذوني بسهولة!»

❋ ❋ ❋

حكاية الطبيب النحيل

يحكيها هو نفسه.

- ١ -

قال (رفعت):

كانت (إنفرنوس) كلها على باب (بيلاسكو) الآن، فلم يرني أحد وأنا أغادر الدار واتجه إلى البيت المقصود.

* * *

لم تكن المهمة عسيرة، وبرغم الظلام كان الضوء القادم من الشارع كافيًا كي أجد الصناديق المذكورة.. صحيح أنني جرحت يدي في أثناء الدخول وتهشيم النافذة، برغم أنني هشمتها بحجر.. وصحيح أنني تلقّيت

عضة فأر في اليد ذاتها وأنا أحاول فتح أحد الصناديق، صحيحٍ أن كل هذا حدث.. لكنّ الأمر كان سهلًا للغاية، فالأيدي الجريحة يمكن تضميدها دائمًا.. وهناك مصل (كَلَب) في مستشفيات (بوكوفينا) دائمًا..

المهم الآن أن....

صوت الهياج يزداد وأنا أدس الأصابع الرهيبة في جيبي.. ثمانية أصابع.. لا بد أنها كافية..

صوت صراخ.. تحطيم خشب.. لا بد أنهم اقتحموا الباب الآن..

وجدت جهاز التفجير ولفة من الأسلاك جواره، فرفعته.. إنّه ثقيل حقًّا لكنّ منظره

يذكرني بـ (كوريك) السيارة أكثر منه بعلبة معدنية..
ولم أنس أن ألف الأسلاك حول ذراعي..
واتجهت إلى.. آه يا قلبي! لاتتخاذل الآن..
مسكين أنت! طالبتك بالكثير وما زال أمامك ما هو أكثر.. إنني أعتمد عليك.. أنت لم تتخل عني منذ عام ١٩٢٤.. فلا تفعلها الآن!
اتجهت إلى.. النافذة...
ونجحت ـ لا أدري كيف ـ في مغادرة الفتحة...
وللحظات استلقيت على أرض الشارع الحجرية ألهث.. وأصغي إلى صوت طلقات النار من بعيد...

يبدو أن (بيلاسكو) لم يكن سهل الهضم كما ظننت..

* * *

راكضًا رحت أتجه إلى الكهف اللعين..
نظرت للوراء فوجدت جثة الفتاة المعلقة من قدميها إلى الشجرة، كأنها في كابوس حي.. لكنّها - على الأقل - قد استراحت للأبد..
تحاشيت النظر إليها، ورحت أتأمل الكهف..
كفم الموت الفاغر ينتظرني في شوق..
ينتظرني وأنا أتجه إليه.. انظر للوراء في

(لقد توقفت الطلقات.. أتراهم فرغوا منه!)

توجس.. لو جاءوا الآن فلن يكون لهذه المغامرة معنى.. (جوستاف) البائس.. هل قتلوه؟ ربما آثروا تركه حتى يجيء (هو) لو كان له أن يجيء..

ترى ما هو عقاب الشخص الذي يبدد أقدس نفائس هذا المجتمع، ويستبدل بها عدة جرامات من الفلفل؟ لن يضربوه بالعصا على أطراف أنامله طبعًا، أو يقولوا له (يا وحش)! لكني غير قادر على تخيل ما سيحدث...

هو ذا الكشاف حيث تركته في تلك الليلة ـ أمس! ـ حين خرجت لهم مع (جوستاف) متظاهرًا بالشحوب.

* * *

«إن ضوء هذا الكشاف لا ينتهي إلا عندما ينتهي!»

* * *

لم ينته بعد لحسن الحظ.. ما زال يسمح لي ببضع دقائق.. على كل حال فتحته وأخرجت الحجر الجاف لأدسه بين أسناني، وأعضه عضة مؤلمة ـ لي أنا طبعًا ـ تمنحه مزيدًا من العمر القصير..

ثم أعدته إلى الكشاف.. حسن.. الإضاءة أحسن دخلت الكهف.. مترين أو ثلاثة أمتار.. ثم رحت أفرغ جيوبي مما بها من نفائس.. ليس الديناميت مما يرهبني الآن..

فقد
فجر
ته
مرّت
ين
من
قبل
حين
واج
هت
(الع
سا
س)
..



نظرت للوراء فوجدت جثة الفتاه المعلقة من قدميها إلى الشجرة ، كأنها فى كابوس حىّ . . لكنها ـ على الأقل ـ قد استراحت للأبد . . .

* * *

ثم انبطحي! لا تنسى يا سيدتي أن تنبطحي!

* * *

بدأت أغرسه كيفما اتفق في الجدران.. أنخر الحجارة الهشة بأظفاري ثم ثبتت كل إصبع في الفتحة..

الآن يبقى دور الـ....

لحظة! يبدو أنّ هذه ليست الطريقة المثلى.. في السينما يفجرون حزمة كاملة من هذه الأصابع ملفوفة بالسلك.. وهكذا قررت أن انتزع كل ما وضعته، وعدت

أكومه في حزمة واحدة.. ثم عريت طرفًا من السلك، رحت أواصل ما بدا لي هو الحل الصائب الوحيد..

وأحكمت تثبيت حزمة الديناميت في الجدار.. ثم مددت السلك إلى الخارج مسافة كافية.. أخيرًا وجدت صخرة يمكن أن أتواري وراءها، فجذبت السلك، وقمت بربطه بجهاز التفجير مستعملًا أظفاري (كانت موضة إطالة ظفر الإصبع الصغير لليد شائعة وقتها، وبرغم أنها عادة غير متحضرة فإنني كنت ممن يزاولونها للأسف)..

هكذا أنا جاهز ويدي على (كباس) جهاز التفجير..

هكذا يمكنني البدء..

لكن ما رأيته جعلني أصاب بشلل لحظي..

❋ ❋ ❋

- ٢ -

لقد كان (بيلاسكو) صادقًا، حتى إن شككت في ذلك لحظة..
لقد سكب دماء (دراكيولا) في المرحاض حقًّا...

* * *

كان الصخب عاتيًا، ولسان من البرق شقّ عنان السماء ليضرب الكهف فيتألق بذلك اللون (الإستاتيكي) البارد الرهيب..
واهتزت الأرض مرات ومرّات، ثم رأيت الشيء الذي قال لي صدق (بيلاسكو)..

فمن أكثر من عشرين موضعًا في ساحة القرية البعيدة، وفي عدة مواضع حول الكهف.. رأيت الأرض تتفجر لتخرج منها نافورات من الدم الأحمر القاني، يثور ويرغي غاضبًا محنقًا..

إن الأمر مفهوم.. هذه هي الدماء، وقد سرت في شبكة المجاري تحت القرية.. ثورة الغضب الأخيرة لكائن شيطاني حرمه الرحمن من إفساد عالمنا..

رحت أردد المعوذتين، وأرتجف.. أسناني تصطك هلعًا..

ولمحت الدماء تتسرب ببطء إلى داخل الكهف.. بركة صغيرة تحتشد ببطء هناك.. ما معنى هذا وما مغزاه؟

غلبني الفضول فنهضت..

ركضت إلى مدخل الكهف محاذرًا أن أدوس في السائل المخيف..

لحسن الحظ أنه يتدفق من الجانب تاركًا لي المجال كي أجد مكانًا لخطواتي..

نظرت إلى الداخل فوجدت هولًا..

لقد كان الضباب الأحمر يتزايد.. الضباب الذي رأيته حين فتحت الباب مع (جوستاف) أمس...

كان هناك صوت خوار قوي..

واستطعت أن أرى جسدًا يتحرك.. جسدًا عملاقًا يرتمى ظله على الضباب.. كان أتيا من قلب الكهف.. من المقبرة وباب (جانب النجوم).. وكان يخور كالثيران..

إنه (هو).. (فلاد).. (دراكيولا).. (نوسفيراتو)!

لقد اجتاز الفتحة إلى عالمنا!
وهرعت راكضًا إلى مخبئي شاعرًا بأنها الساعة..
فؤادي لا يكف عن الوثب.. لا يكف عن..
لا بد أنني غبت عن الوعي بضع دقائق من فرط الانفعال العاطفي..
و.... الظلام... الظلام...

❋ ❋ ❋

وحين فتحت عيني رأيت المشهد وقد صار مزدحمًا إلى حد لا يمكن وصفه.. وعلى ضوء البرق اللحظي كنت أرى تفاصيله بدقة..

لقد جاء كل أهالى (إنفرنوس)، واحتشدوا عند مدخل الكهف..

لو أنك رأيت المشهد لأرحتني من عناء وصفه.. لكني سأحاول.. سأحاول أن أصف البرق، والظلام ونافورات الدم، والضباب الأحمر المنبعث من المدخل.. سأحاول أن أصف القوم وهم يصرخون في لهفة.. في نشوة.. وينحنون غير مصدقين.. سأحاول أن أصف رائحتهم الكريهة التي امتزجت برائحة البرق ورائحة (الأوزون) إن كانت للأخير رائحة...

وأخيرًا فهمت أكثر ما حدث...

إن العلامة التي ينتظرها (هو) كي يجتاز الثغرة، هي أن ترتوى أرض الكهف

بدمائه.. وهو ما حدث نتيجة لقيام (بيلاسكو) برمي الدماء في شبكة المجاري..

صحيح أن (هالماجيو) لم تصر كلها للشاحبين.. وهذا معناه أن الأخ (فلاد) قد تلقى دعوة سابقة لأوانها؛ لكنّ هذا لا ينفي حقيقة أنه اجتاز الفتحة أو يجتازها الآن...

ورأيت المسوخ المخبولة تدخل الكهف، وهم يرددون الكلمة الوحيدة التي أعرفها ـ للأسف ـ من اللغة الرومانية كلها:

- «فامفيرى! فامفيري!»

كلهم يدخل حتى الشيوخ منهم والنساء.

كلهم يدخل الكهف ليكون باستقبال (هو الذي يمشي في الظلال)...

* * *

ولم يكن أمامي حل آخر.. صدقوني....

فقط امتدت يدي إلى (الكباس)، ودعوت الله - رب العرش العظيم - أن يكون فهمي للدوائر الكهربية صحيحًا، وأن يكون الديناميت صالحًا، وأن يكون موقعه ملائمًا، وأن يكون بوسعي أنا الكهل الواهن أن أنهي هذا الكابوس...

هوب! لم يحدث شيء...

هوب! لا شيء...

أترى من المفترض أن أضغط على هذه الأداة مرارًا كمنفاخ الدراجة الهوائية؟ أم.....؟

لكن الانفجار جعلني لا أتساءل أكثر..

* * *

استحال الليل نهارًا، واهتزت الأرض تحت قدمي، وتطاير الغبار في كل مكان..
بصعوبة صدقت أنني مصدر هذه الفوضى..
وخيل إليّ أن الدوي استمر قرونًا.. لكنه حين هدأ أخيرًا، كان بوسعي أن أرى مدخل الكهف وقد تحول إلى جبل من الصخور...
و ـ كأنما لتغسل كل هذه الآثام ـ انهمرت الأمطار مدرارًا...

* * *

ها ها ها ها ه!

دوت الضحكة العالية لكنّها لم تكن لي.. استدرت إلى الوراء فرأيته واقفًا تحت الأمطار في وقار كأنما لا يعبأ بها ولا تعبأ به.

نزعت عويناتي التي جعلها الماء لا تصلح لشيءٍ.. كان الصيب ينهمر على صلعتي، وبلل ثيابي إلى ما تحت جلدي.. لكني تقدمت نحوه وأنا أشهق طالبًا الهواء..

د.(لوسفير) ينتظرني ويداه في جيبي صدير بذلته السوداء..

قلت له والماء يسيل من حاجبي كالشلال:

- «والآن تعال نصف حسابنا أيها الوغد.. أرني ما ستفعله!»

واتخذت وضع ملاكمة عظيمًا جدًا، واتجهت نحوه، وقبضتي اليمنى تتقدمني.. إن لكمتي الخطافية سوف..

- «كف عن هذا السخف!»

قالها ودفعني للوراء بسبابته، فطرت مترًا أو أكثر لأسقط في الأوحال.. لن أستطيع أن أفعل ما يفعله الآخرون أبدًا...

وقال لي وهو يتأملني وأنا على الأرض:

- «لقد هدمت الكهف على رءوسهم يا د. (رفعت).. وأغلقت باب (جانب النجوم) في اللحظة التي كان (فلاد) يتأهب فيها للعبور.. لعبة موفقة حقًّا..»

- «لكنه عبر بالفعل.. لقد رأيته!»

- «كان هذا ياوره.. وقد جاء يستكشف الأمور قبل قدوم سيده...»

ثم أردف والمطر يزداد كثافة:

- «الحق أقول إنني كنت أعرف هذا من اللحظة الأولى.. وعرفت أنك ستفجر الكهف.. لكني - لك أن تصدق - تركت الأمور تمضي كي أستمتع برؤية صراعك المحموم..»

سألته وأنا أنهض مهشّم العظام:

- «ولماذا؟»

- «لأن الحمقى من أمثالك هم ما يجعل للحياة طعمًا.. إن (المانوية) تقول إن الشر ضروري للكون كالخير.. ولولا الشر ما وجد الخير.. إن الحياة لا تستقيم إلا بوجود مصاصي الدماء وقتلة مصاصي الدماء مثلك.. لهذا تركتك حيًا لأن جولات كثيرة

تنتظرنا معًا.. جولات أكثر إمتاعًا من هذه..»

- «تريد القول إنك ستتركني حيًّا الان؟»

- «حقًّا أقول..»

- «وبمنطق القط (توم) الذي لا يلتهم الفأر (جيري) حتى لا تصير الحياة مملة كالجحيم؟»

- «بالمنطق ذاته..»

نظرت للسماء التي ما زالت تسخو بأمطارها.. وقلت:

- «وماذا عن (فلاد)؟»

- «سيبحث عن ثغرة أخرى يعبر من خلالها.. ولسوف ينجح حتمًا.. ويومها ستكون أنت أول رأس يقطعه.. فهو يعلم الآن من أغلق بوابته!»

حاولت سندي تجفيف صلعتي من الماء، وسألته:

- «وماذا عن (جوستاف)؟»

- «حي يرزق.. ستجده في القبو حيث هو.. لكنّ لا تصعد للطابق العلوي لأن المشهد ليس محببًا..»

- «رباه!»

واستدرت مبتعدًا متجهًا إلى دار (بيلاسكو)، حين سمعت (لوسيفر) يناديني من وراء ظهري.. فسألته دون أن ألتفت:

- «هل هناك جديد؟»

قال بصوته الببري واثق النبرات عميقها:

- «حافظ على صحتك.. حاول ألا تموت قبل لقائنا التالي..»

- «سأحاول.. لكني لا أعدك بشيء..»

* * *

سيكون عليّ أن أحكي كل هذا للسلطات الرومانية المتشككة..
سيكون عليّ أن أطمئن على أن (جوستاف) قد شفي من الصدمة العصبية..
سيكون عليّ أن أضمد جراح يدي، وأخذ حقن (الكَلَب) إياها..
سيكون عليّ أن أتحاشى الإصابة بالتهاب رئوي بعد كل هذا البلل..
سيكون عليّ أن أحاول النسيان، كي أستطيع النوم من جديد..

* * *

كل هذا ممكن..

أحتاج إلى وقت لكنه ممكن...

وكان على أن أشفى سريعًا من جراحي النفسية والمعنوية، كي أواجه فصيلة النازيين التي لم تمت بعد، والتي تجوب القرى ليلًا تنشر الخراب والذعر..

لكنّ هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم
الإيداع:
١٦٠٦

المطبعة
العربية
الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -

٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة
حكاية الشاحب الثالث
حكاية الشاحبة الثانية
حكاية الشاحبة الأولى أو كيف بدأ الوباء؟
حكاية الصحفي البدين
- ١ -
- ٢ -
حكاية الطبيب النحيل
- ١ -
- ٢ -
- ٣ -
حكاية الشاحب الرابع
- ١ -
- ٢ -
- ٣ -
حكاية الطبيب النحيل

- ١ -

- ٢ -

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب



تعرفون هذا النوع من المآزق ؛
في الخارج ينتظر مصاصو الدماء
في شغف ، وفي الداخل يتحرك الباب
منذرًا بدخول شيء ما من عالم آخر ..
وعليكم الاختيار! لو طلبتم رأي د.
(رفعت إسماعيل) لنصحكم بالخروج
إلى مصاصي الدماء ؛ فهم أكثر
وادعة وأكثر لطفًا من ذلك الذي
يفتح البـــاب الآن!



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر ــــ
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم



العدد القادم:
أسطورة الفصيلة السادسة

Notes

[←1]

إن (ناديا) لا تعرف اللاتينية.. لذا لا تعرف أن (سانجينوس) مشتقة من (سانجينيوس) بمعنى (دم)..

[←2]

تنويه لمن لم يقرءوا الكتيب العشرين: كان د. (لوسيفر) هو بطل الكتيب العشرين!

[3←]
فيما بعد قابلت كل هؤلاء في قصة (أسطورة جانب النجوم)، وسأحكيها لكم يومًا ما...